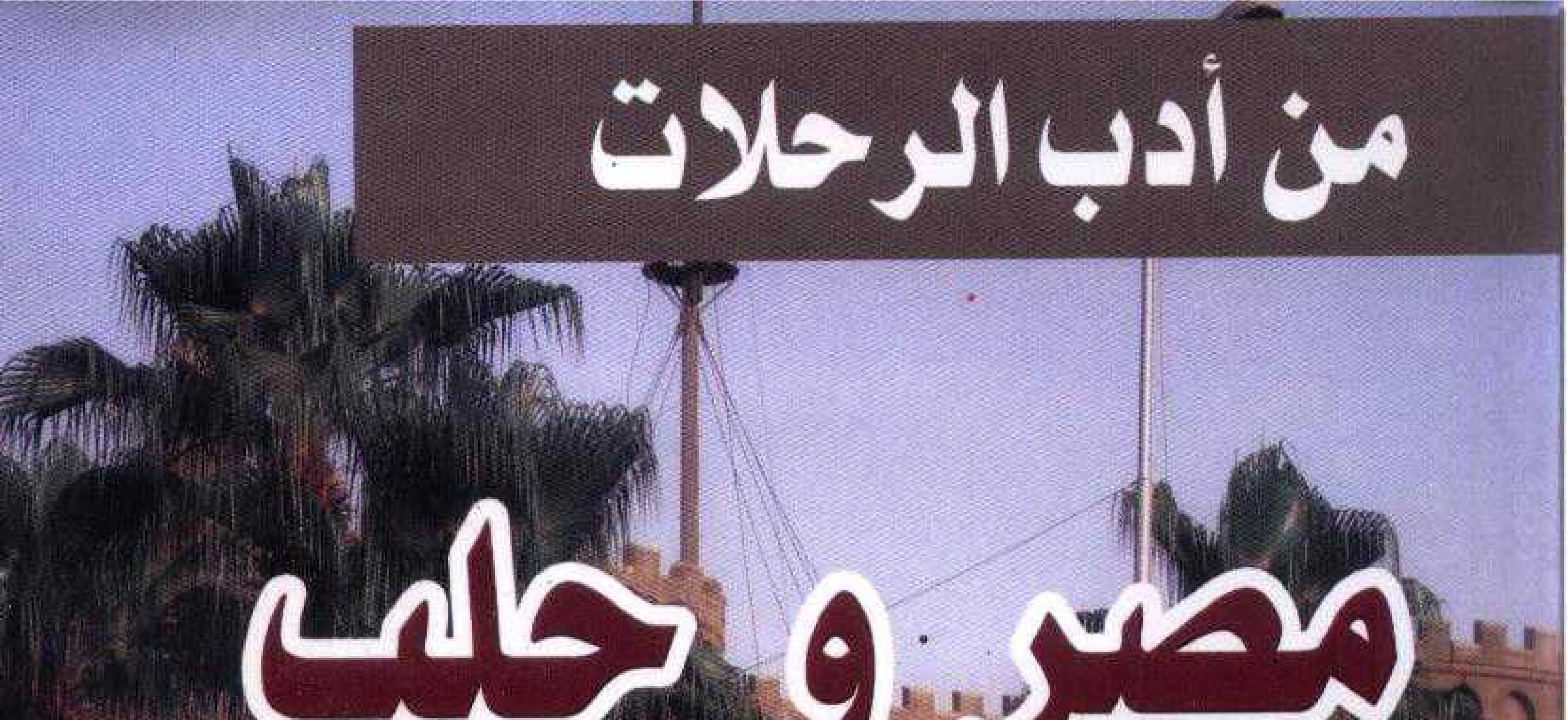
من أدب الرحلات



مصر و حلب

رحلة وتاريخ







يسجلها / عمرو إبراهيم ماهر

من أدب الـرحـلات

مصر وحلب

رحلـة وتاريـخ

يسجلها

عمرو إبراهيم ماهر

تمهيد

نحن نتجول فى رحلة عبر تاريخنا المشترك لنعرف ماذا كنا، وكيف أصبحنا .

فقد لعب أدب الرحلات ، دوراً حيوياً فى تسجيل معالم وتراث الإنسانية ليس في الخرائط والجغرافيا فقط ، بل وأيضاً فى فهم عادات وتقاليد ومعتقدات الشعوب منذ هيرودوت وإلى اليوم ؛ وهو ما لم نكن قادرين على التعرف عليه بتأمل شموخ التماثيل وبقراءة المسلات واللوحات الجدارية .

ودور الرحالة ليس ثانوياً وتافهاً ومتآمراً ، بل إن لهم الفضل فى تأصيل العلم ؛ بملاحظاتهم الجادة المتفحصة ، وبنشر خدمات علمية على مستوى العالم ، وبتبصير أهل المنطقة بما تحتوى عليه بلادهم من كنوز لم يكونوا يجيدون قراءتها بل ولا يعرفون بوجودها ؛ ويؤكد هذا ما وصفه علماء الحملة الفرنسية فى إنجازهم الخالد وصف مصر .

يصف القس دوز سانتوس فى رحلته فاكهة الهند بالتفصيل ويسجل عاداتهم وآلاتهم الموسيقية وأثاثهم وطعامهم وطيورهم ، بل وثعابينهم وأيام حِدَادِهِم .

ولم يعد يقتصر أدب الرحلات على مجرد التأمل والوصف والتعليق ، رغم ماله من أهمية ؛ وإنما تطور ليعبر عن وجهة نظر الكاتب فى مسائل الفقر والديكتاتورية والحروب ..

وقد نشأت اليوميات والمذكرات مع التجول والترحال ، وقد عرفنا منها للكثير حول اكتشاف جنوب أفريقيا والأمريكتين وغيرهما .. وقد أمدنا أحد البحارة فى يومياته بالكثير من المعلومات حول رحلة فاسكو داجاما واكتشاف الهند فى سفينته سانت رافاييل S.Rafael .

إلا أن اليوميات والمذكرات تعتمد بالأساس على جولة فى الزمان . وهذا النوع من الأدب ، أدب الرحلات عبر التاريخ، لست أول من يبتدعه ؛ وإنما امتداداً لسندباد ، ولعشرات الكتب والمؤلفين غيره .

وآمل أن أكون قد أوضحت الأسلوب الذي أتبعه فى هذا الكتاب لتصحبني عزيزي القارئ لحظة بلحظة وخطوة بخطوة عبر تاريخ حافل بالأحداث .

عمرو

الفصل الأول

رحلة إلى حلب

رحلـــة لمدينة حلـب

كانت رحلتي هذه المرة .. إلى الجمهورية العربية السورية وبالتحديد إلى حلب الكائنة بشمال سوريا ؛ التي تتلامس حدودها مع حدود تركيا .

صعدت الطائرة السورية ، وكانت من الطـراز الفـاخر ، وكتب عليها من الخارج أسفل نافذة كابينة القيادة من الجنـب ، اسمها " عمريت " . ويبدوا أن هذا الاسم مشتق مـن حضـارة العمارنة "عمورية" التي سادت فترة من فترات التاريخ السوري القديم كحضارة الفينيقيين بلبنان وبابل بالعراق وتدمر بسـوريا والفراعنة بمصر .

وأشد ما بهرني فى الطائرة هي الشاشة التليفزيونيـة التـي كانت توضح خط مسار الطائرة أثناء طيرانها علـى خريطـة المكان الذي كنا نطير فوقه .

ولاحظت أن الطائرة استغرقت أقل من ٧ دقائق حتى أعلنت الشاشة بخط واضح أننا أصبحنا فوق مدينة المنصورة ، ثم اتجهت ناحية البحر ما بين جمصة وبلطيم ، لتنطلق فوق البحر المتوسط ، فتلون الجو بالزُرقة بفضل مياه البحر وزرقة السماء وباستثناء بضع سحب بيضاء تشبه قطعان الخراف التي تسير معاً بشكل منتظم يعطي إحساساً بالراحة الممزوجة بروح المغامرة .

وبعد ساعة طيران تقريباً ، تطالعنا جزيرة قبرص على يسارنا بوسط البحر ، وكأنها بقعة صغيرة خضراء وسط زرقة لا متناهية ، وبعدها مباشرة على اليمين كانت بيروت.

ثم ما لبثت الطائرة أن انحرفت يميناً فوق طرابلس اللبنانية تقريباً لنترك البحر ونرى الجبال البنفسجية داكنة اللون والخضراء من ارتفاع شاهق لتتقدم إلى حمص ثم حماه ثم ما لبثت أن لامست عجلاتها مطار حلب لتصل هناك بعد ساعة ونصف طيران مباشرة من القاهرة .

حلب تفتح ذراعيها للأشقـــاء

وعلى الفور خرجت من المطار لأستقل أحـــد التاكســيات وأتجه إلى وسط مدينة حلب وعيوني تتابع اختـــراق التاكســي بشوارع المدينة التي صادقتها وأحببتهـــا مـــن أول نظـــرة .. الأشجار المشذبة على جانبي الطريق وكأنها حرس شرف أتى لاستقبالي ، ويصطف على طول الطريق من المطار إلى وسط المدينة إلى شارع بارون وساحة المرنية وبرج الساعة وبـــاب الفرج وغوطات حلب الجميلة والنسيم المنعش يملؤني ويعطيني إحساساً جميلاً بأنني وسط أهلي وأحبابي على أرضـــي وكـــأن الروح المصرية الممتزجة بالروح الشامية ترفرف فى أرجـــاء المدينة فتبعث أريجاً جميلاً .

وشارع الشلالات يغسل الصدور بفعـــل مياهـــه المندفعـــة والممتدة على طول الشارع . المقاهي والكافيتريـــات تفـــرش طاولاتها على أرصفتها الخاصة بألوانهـــا المبهجـــة وطرقهـــا الحديثة المحافظة على روحها العربية الأصيلة .

وشعب حلب شعب ودود محب لكل ما هو مصري ، وما أن

يتعرف أحد منهم على مصريتي حتى تظهر عليه علامات الفرح والسعادة ، وكأن المصرية هي جزء من روحه ، يريد أن يقترب منها ، وكأنه يريد أن يعيد مجد الأمة العربية التي كانت متكونة من العنصرين السوري والمصري معاً..

صور الزعيم

من سحيق العصور ، كان النيل والفرات مبعث إلهام الشعبين وتآلف حضارتهما ..

منذ الفراعنة والفينيقيين والعمارنة والأيوبيين ..

فاتحدا في عصر صلاح الدين الأيوبي .. حتى توجت بالوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ ، وصارا شعباً واحداً تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة المتكون من الإقليم الشمالي سوريا ، والإقليم الجنوبي مصر .

تظهر صور جمال عبد الناصر في بعض المحلات والساحات والمباني أو البيوت الشعبية القديمة ، ويعرف ميدان الكلاسة بميدان جمال ؛ إنهم يكنون له حباً لا يوصف يقترب إلى حد العشق .

مدينة الغناء والإحساس بالجمال

حلب هي مهد الغناء العربي بالقدود الحلبية وبالصوت الشجي القوى المعبر بالأصالة العربية الرصينة والتي تنطلق أصواتها من مسارح المدينة المنتشرة بوسطها ؛ وبأشهر كازينوهاتها السبيل الذي ما أن تجلس فيه حتى تشعر وكأنك فى جنة من جنات عدن ! .. حيث تجد الطاولة قد امتدت إليها أطباق الفاكهة الطازجة والمكسرات وخاصة الفستق الحلبي الأخضر ذو القشرة الحمراء ، ومياه البحيرات تنساب تحت قدميك مع الأضواء الجميلة الهادئة ، وكأنك فى الركن البعيد الهادي .

وتستطيع أن تخترق السحب والنجوم وأنت تقف على جبل الأنصاري ناظراً إلى أضواء حلب المبهرة تحت قدميك في الليل ؛ حين تتحول إلى أضواء عرس دائم .

وكأن النجوم والكواكب سارت بين أياديك كالماسات البرّاقة تحاكيها وهى تبتسم إليك وأنت مفتوناً بهذا المنظر الذي لا يفارق ذاكرتك أبداً .

وأحياء حلب كثيرة منها : باب النبرب ، العزيزيـــة ، جبـــل الأنصاري ، سيف الدولة الكرة الأرضية ، الأعظمية ، ميسلون السكري ، الكلاسيـــة ..

كما أنها تعتبر جسر الشرق إلى أوربا وآسيا سواء بـــراً أو عبر السكك الحديدية حيث توجد بحلب أكبر محطة سكك حديـــد بالشرق التي تنطلق منها القطارات الفاخرة إلى تركيا ومنها إلى أوربا وإلى العراق ومنها إلى إيران وباكستان أو إلى لبنان وإلى دمشق ومنها إلى عمان حيث سكة حديد الحجاز إلى السعودية ؛ ولكن هذا الخط قد ألغي عقب الحرب العالمية الثانيـــة ، ولكـــن شواهده مازالت قائمة حتى الآن بعمان بالمملكة الأردنية.

وحلب شأنها شأن دمشق والقاهرة من أقـــدم المـــدن عبـــر التاريخ ؛ وتجمع ما بين القدم والحداثة .. فبجانب أحيائها الراقية والحديثة التي لا تقل فخامتها عن أي مدينـــة حديثـــة بمبانيهـــا الأوربية وبمحلاتها الجميلة .

توجد الأحياء القديمة التاريخية التي تشتمّ منها رائحة التاريخ وأريجه عبر سوق المدينة المبني من الحجر الصخري الأبيض العريض والمسقوف على مساحة كبيرة على هيئة خانات متداخلة ، كل خان به عدد كبير من الدكاكين التي تتاجر في شئ واحد فمثلاً هذا خان الخياطين ، وهذا خان النحاسين ، وهذا خان السجاد .. خان الذهب .. خان الفستق .. خان الصابون .. خان الزيوت .. خان الحرير الخ ، إنه سوق هائل وإنها مدينة متكاملة منظمة بطريقة فريدة مدهشة ، ومازالت محافظة على عمرانها منذ آلاف السنين وكأنها تتحدى الزمن .

تشتمّ فى سوق المدينة هذا رائحة خان الخليلي والموسكي والغورية. هذا السوق صورة طبق الأصل من سوق تركيا ؛ يتفرع من هذا السوق بوابات تفضي إلى حارات ضيقة ملتوية تأخذك إلى الحي القديم ؛ حيث الشوارع مبنطة بالبلاط الصخري الأبيض الصغير والبيوت المبنية من الطوب الصخري الأبيض على شكل بيوت صغيرة جنباً إلى جنب لا يفصلها شئ سوى الحارة التي تسير فيها وتتداخل مع حارات أخرى ضيقة بحيث إذا لم يكن معك أحد من أهل هذه الحارات لتهت فيها . وشكل هذا الحي القديم يعطي لك انطباعاً بأنه يغلب

عليه الطابع الإغريقي والأندلسي والعربي فى آن واحد .

حيث تلمح فيها الهندسة الإغريقية القديمة والمشربيات الأندلسية العربية التي تزين شبابيكها وينمو عليها نبات اللبلاب الذي يتسلقها ويضفي عليها لون أخضر ونضارة فائقة .

وحين تمشى فى أزقتها الضيقة يخيل إليك أنك سوف تقابل أرسطو أو أفلاطون يتجولان فى شوارع أثينا القديمة يبحثان عن الحقيقة فى زمن الإغريق ، فهذه البيوت يبدو أنها بنيت فى عصر الإغريق أو الرومان حين كانوا يتسيدون هذه المناطق .

وهى نقلة كبيرة ، حين تشعر بأنك انتقلت من القرن العشرين إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي بخطوات تدريجية .. من السوق إلى هذا الحي القديم ؛ وهو طراز فريد فى نوعه يندر وجوده فى أي مدينة أخرى سوى فى المدن التاريخية كالقاهرة وروما وأثينا .

حلب بأقـــلام المؤرخين

يزعم المؤرخون أن أول من بنى حلب هو الملك ســـلوقوس نيكاتو [أى المنتصر] الذى أسس الدولة السلوقية فـــى ســـوريا واتخذ من انطاكية عاصمة لها ، وهو الذى بنى قلعتها على جبل يشرف على المدينة وذلك فى العصر البيزنطي [الإمبراطورية الرومانية الشرقية] .

ويزعم بعضهم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين هاجر من العراق اتخذ فيها موضعاً يحلب فيه بقرته الشهباء ويوزع لبنها على المخيمين حوله فسميت لذلك : حلب الشهباء ؛ أي ناصعة البياض . وفى وصف حلب قالوا عنها : " أعظم البلاد جمـــالاً وأروعها زينة وجلالاً ، مشهورة الفخار ، علية البناء والمنـــار ظلها ضاف ، وماؤها صاف ، وسعدها واف ، ووردها يشـــفي النفوس وأنوارها مشرقة وأزهارها وأشجارها مثمرة ومورقة " .

وقال فيها أبو فراس الحمداني :

لقد طفت فى الآفـــاق شرقاً وغربـــاً وقلبـــت مرائي فيها متقلبـــاً

فلم أرى كالشهباء فى الأرض منزلاً ولا كقويق فى المشارب مشرباً

وقويق هو اسم نهر يجري إليها من تركيا ويمر بوسطها ، ويجرى فى الشتاء وينقطع فى الصيف .

حلب .. حضارة وإبداع

كان التجول وسط الحي القديم " الجلوم " متعة لا يضاهيها متعة أخرى حين تشعر بأنك ذهبت وعدت إلى هذا الزمن السحيق الذي تقرؤه فى كتب التاريخ .

كانت روائح الطعام الزكية المنبعثة من مطابخ بيوت هذا الحي تحمل إلى أنفك طعم الكبيبة الحلبية ، والنيئة ، والسمائية مع الحليب الرائب المذاب فيه الملح وخبز التنور وعيش البليل والهيطالية بالقرفة ، وهى أكلات تشتهر بها حلب ، بجانب الحلوى الشرقية الأصيلة المليئة بالفستق والمكسرات الطازجة والتى تصدّرها فى علب مصنوعة من الخشب إلى بلاد العالم ؛ ومن أشهر محلاتها الطرقجي ومستت وغيرهما.. وكانت المراكب الشراعية فى الزمن السحيق تنقلها إلى عكا ودمياط .

ومن هنا انتقلت صناعة هذه الحلوى إلى دمياط التي تميزت بها ..

حمامــات حلب

دخلت إلى حمام النحاسين ، وهو حمام مبني منذ زمن يفــوق زمن المماليك وهو على حاله لم يتغير منذ أن بني ؛ وهو عبارة عن إيوان به دكك مفروشة مريحة ، يستقبلك صاحب الحمام ، وتنقده الثمن ، ثم تذهب إلى صالة أخرى تســتلم مــن عامــل مفرش كبير تلفه حول وسطك بعد خلع ملابسك ، ثم تدخل إلى إيوان آخر به مغطس وقباب عالية بها فتحــات تــدخل منهــا الشمس على استحياء لتبدد ظلمة المكان .. وتوجد غرف بهــا مواسير ساخنة وباردة .

تجلس مسترخياً على أرضية صخرية شبيهة بالرخام الخشن ، وتفرك جسدك بالصابون الأحمر المصنوع من زيت الزيتون ، ويقوم أحد العمال بتدليك جسدك بليفة غليظة يخيل إليــك أنهــا عبارة عن مسامير دقيقة تخرج الأوساخ من ثنايــا الجلــد ثــم تغتسل بالماء حسب درجة اختيارك لها من سخن وبارد ، ثــم تغطس فى المغطس ، إلى أن تشعر برغبتك فــى الخــروج ، وكأنك ولدت من جديد، بعد أن يدب النشاط فى سائر أعضاءك، فتبدوا سعيداً منتشياً .

وتزداد بهجة الحمام بوجود أحد العرسان الذي يلتف بأهله وأصدقائه وهو يغتسل بالحمام ، ويغنون له بالأغاني الحلبية الجميلة ، ويدقون له على الدفوف النحاسية التي يغتسلون بها .

ثم تخرج وأنت بهذه الحالة لتجد قلعة حلب تقف فى شموخ وكبرياء ، متربعة على أحد التلال الكبيرة التي تشبه الجبل الذي يتوسط حلب ويرتفع عنها ارتفاعاً شاهقاً بحيث تستطيع أن ترى حلب كلها بوقوفك على أحد أسوارها شأن القلعة بمصر .

قلعة حلب

تتميز قلعة حلب بأنها حصن منيع لا يمكن اقتحامه ، وهى تعرف بقلعة سيف الدولة الحمداني ؛ ولكن طريقة بنائها وطرازها يجعلك تعتقد شأن الحي القديم أنها بنيت منذ عصور الإغريق أو الرومان ، كما تدل على ذلك هندستها العسكرية المنيعة ، حيث تقع القلعة على جبل يتوسط مدينة حلب .

والدخول إلى القلعة يتم على جسر ممتد من الأرض إلى مدخلها وهذا الجسر هو فى حقيقته باب القلعة بحيث إذا أغلق يرتفع إلى أعلى ليغلق مدخلها فتصبح القلعة منعزلة تماماً حيث

تحتل قمة الجبل ولا يستطيع أحد الدخول إليها لا سـيما وأن هناك نهر صناعي ملتف حولها من جميع جوانبها ليفصل الجبل عن الأرض مسافة ٢٠٠م تقريباً .

والقلعة شبيهة بقلاع الأوربيين التي كانت تقـام بـالبحر ولا تتصل بالبر إلا عن طريق بابها الذي ما أن يفتح حتى يتحـول إلى جسر وما أن يغلق فيحيل البحر بينها وبين البر ،

كما شاهدت ذلك فى إحدى قلاع الدنمارك ؛ ويبدوا أن الإغريق أو الرومان هم الذين أسسوا هذه القلعة بهذه الفكرة النكية ، ثـم حين انتصر عليهم سيف الدولة الحمداني اتخذها مقـراً للحكـم فعرفت بقلعة حلب سيف الدولة الحمداني .

أشجار ترقص باليـه بحيرة البجع

حين انطلقت بنا السيارة إلى شمال حلب فى اتجاه تركيـا ، كانت الطبيعة ساحرة ، والطريق يجرى وسط تـلال هابطـة وصاعدة ، وكانت أشجار الزيتون تقف على جـانبي الطريـق كأنها راقصات باليه تستقبل ضيوفها برقصات رشيقة ، تبعد كل شجرة عن الأخرى بمساحة محسوبة لا تختلـف مـن شـجرة لأخرى ، فى صفوف متعامـدة وبنفس المسافة التي تفصل بين

راقصة الباليه وزميلتها وهن تؤدين رقصة بحيرة البجع .

كانت تربتها تميل إلى الاحمرار ولا تخلو من صخور تكاد تكون مقطوعة من الجبال ، لكونها بقايا الجبال التي كانت موجودة ثم تحللت بمضي الزمن ، وأصبحت مروج خضراء ، ومهَّدها الإنسان فى بسطة زراعية تزخر بالتربة الصالحة لزراعة الزيتون ، فكانت لوحة فنية بديعة من اللون الأخضر المريح فى مساحة حمراء تميل إلى شبه الاصفرار .

الفصل الثاني

السلطان قنصوه الغوري

رائحة التاريخ

والسيارة تشق طريقها صوب الشمال إلى ما يقرب من ساعة إلا ربعاً حتى وجدت يافطة صغيرة لا تنبأ عن شئ سوى اسم [مرج دابق] فإذا بي أفاجأ بتغير طبيعة التربة وأجد سهل فسيح ممتد إلى الأفق ، ووجدت تلاً مرتفعاً عن بلدة مرج دابق، من يقف عليه يستطيع كشف أعماق السهل إلى أن يمتد البصر إلى الجبل التركي ، وهى بداية الأراضي التركية والحدود السورية ، كان سهلاً فسيحاً ، يمتد البصر خلاله إلى الأفق .

ظللت واقفاً فوق الهضبة المشرفة على السهل ، والتي من خلالها يستطيع الناظر إليه مد بصره إلى الجبل التركي الذي يظهر بعيداً مغطى بالعشب الأخضر؛ وفى الليل تضئ أنوار المدن التركية الحدودية الواقعة ناحية هذا الجبل بصورة مبهرة وبراقة كالماسات المضيئة ، ومنها مدينة كلس التي تتوهج أضوائها على سفح هذا الجبل باعتبارها من أكبر المدن التركية فى هذه الناحية .

وفجأة وأنا أتطلع إلى هذا السهل الفسيح خيل إلى أنني أسـمع صليل السيوف وصوت المحاربين وصهيل الخيول وهى تواجه بعضها فى موقعة مرج دابق فى سنة ١٥١٦.

مرج دابـق

حين تحرك الجيش المصري بكامل معداته وأسلحته وفرسـانه من مدينة القاهرة ، وعلى رأسه قائده السلطان الغوري متحركـاً بكامل عتاده العسكري صوب شمال حلب لملاقاة الجيش العثماني الذي كان يغير على المدن السورية الشمالية محدثاً الفزع والهلع. وكان من واجب سلطان المسلمين الدفاع عن الحدود الشمالية.

وإذا كانت الطائرة قطعت المسافة ما بين القاهرة وحلب فـى ساعة وثلث الساعة ، فإن الجيش السلطاني المصري ظل فـى الطريق ما يقرب منْ ثلاثة أشهر كاملة متخذاً من الطريق البري عبر العريش ورفح غزة وخان يونس والقدس ودمشق وحلب إلى أن عسكر فى حلب ما يقرب مـن شـهر لتنظـيم صفوفـه واستكمال مسيرتـه صوب الحدود الشماليـة .

حيث قامت الحملة بتاريخ ١٦ ربيـــع الآخـــر ســنة ٩٢٢هـــ ووصلت إلى حلب بتاريخ ١٥ جمادى الآخر سنة ٩٢٢ هـ .

وكانت فرق الاستطلاع المصرية والسورية تستطلع تحركات الجيش العثماني على الحدود وتحركاتها ومجموعاتها وأسلحتها، وعتادها وعدتها .

وبالمثل كان الجيش العثماني على دراية بما يحصل فى معسكر الجيش السلطاني سواء عن طريق الاســتطلاع أو الجواســيس المجندين لهذه المهمة مقابل المكافآت الموعودة لهم .

وكان الحمام الزاجل هو الوسيلة الآمنة فى حمل الرســائل من كل جانب إلى الآخر .

ولموقع حلب فى أقصى شمال سوريا فى شرق المتوسط أهمية بالغة لدى سلاطين المماليك الذين حكموا مصر والشام ، وذلك لتطرفها عن قلب السلطنة المملوكية وتلامس حدودها مع حدود أعداء السلطنة من مغول وأرمن وتركمان وسلاجقة وصــفويين وعثمانيين .. الذين ينسبون إلى قبائل آل عثمان التي نزحت من أواسط آسيــا واستوطنت الأناضول. ثم زحفــت إلى بيــزانطا

القسطنطينية على يد محمد الفاتح و أولاده من بعده .

وكانت السلطنة المملوكية تراقب نموها وتحركاتها ، ويقلق بالها انتصاراتها المتلاحقة ،وتنظر إليها بعين الحذر حين أضحت أكبر قوة على الحدود الشمالية للسلطنة .

لذلك حرص السلاطين على إحكام قبضتهم على حلب باعتبارها البوابة الشمالية وخط الدفاع الأول ومدها بالمزيد من الجند والعسكر والبارود كقوة مملوكية ضاربة لحماية مصر والشام من الخطر الخارجي، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى ، كانت تقوم بتعيين نواب عليها من قبل السلطان المملوكي ليباشر مهامه فى حماية السلطنة من جهة الشمال .

نائب حلب

وكانت دائماً تراقب هؤلاء النواب على نحو ما فعله الظاهر بيبرس حين عودته من الحجاز ، فعرج على حلب فجأة ليقف على أمورها بنفسه ويفاجئ نائبها بوجوده ، وكان هؤلاء النواب يستقبلوا فى مصر إذا ما حضروا إليها استقبال عظيم . فى شهر شوال ٩١٦هـ سنة ١٥١١م حضر إلى السلطنة المملوكية بالقاهرة

الأمير خاير بك نائب حلب وصعد القلعة بموكب حافل أقيم فى بيت الأمير قرقماس ومكث بالقاهرة شهرين ، وعمل له موكباً يليق بالأمراء وساق أمامه الرماحة وهم لابسون الحمر وآلة السلاح كما يفعلون أيام المحمل .

وقد ولدت فكرة النيابة بحلب على أثر انتصار السلطان قطز فى موقعة عين جالوت سنة٦٥٨هـ ــ ١٢٦٠م على التتار . هذا فضلاً لأهمية حلب التجارية حيث كانت مصدر الثروة للسلطنة.

رأس الرجاء الصالح

تتمتع حلب باهتمام بالغ لأنها أحد مصادر الثروة المملوكيّة؛ حيث كانت تجئ إليها بضائع الصين والهند من الحرير والتوابل والبخور لتذهب إلى أوربا ؛ فنشطت فيها تجارة الحرير وعرفت بطريق الحرير . وظلت التجارة منتعشة عبر هذا الطريق الذي كان أحد روافده القاهرة التي كانت تستقبل التجار الشوام وهم يحملون فى قوافلهم هذه التجارة التي كان ينتظرها المماليك فى شوق؛ سيما أن ملابسهم كانت حريرية وعمائمهم

وسروج خيولهم ترصع فيها المجوهرات كاللؤلؤ والعقيق والزمرد الآتي من الهند .

فكانت تجارة رائجة أثرت كثيراً من التجار المصريين والشوام، وعمرت خزائن الدولة من رسوم العبور ومن الضرائب وغيرها .

وهكذا ، ظلت حلب مصدر الثروة للسلطنة المملوكية إلى أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس رجاء الصالح فتحولت التجارة الدولية من حلب إلى الأساطيل الأوربية التي جابت أفريقيا صوب الهند فبدأت تفقد مكانتها التجارية شيئاً فشيئاً.

وكان لهذا الكشف الجغرافي أثره السيئ على طريق تجارة السويس ـ القاهرة فأثَّرَ من ناحيتين فى مصادر الثروة للسلطنة المملوكية .

فأعد السلطان الغوري حملة لمحاربة البرتغاليون فى البحر الأحمر ، ولكنها باءت بالفشل .

مما كان له الأثر فى فرض مزيد من الضرائب على المصريين ، لتعويض خزائن الدولة ما فقدته من الثروة التي كانت تُدَرُّ عليها من رسوم العبور والضرائب على القوافل الآتية من الشام .

نمو التجارة البينية بين المنطقة العربية

ولكن استمرت التجارة مابين مصر والشام عبر القوافل التي كانت تحمل منتجات البلدين المحلية ، فكانت مصر تصدر الأرز والقطن ، وتستورد الحرير وزيت الزيتون والمكسرات وقمر الدين والصابون الأحمر وغيرها . فكانت تجارة محلية بعد أن تحولت التجارة الدولية لرأس الرجاء الصالح .

ومن ثم نشطت الصناعات من أول الصباغة ، إلى عصر الزيتون ، إلى الصابون إلى المنتجات الحريرية ؛ التي كانت تصنع فى حلب خاصة بلدة منبج التى تشتهر بأشجار التوت ودود القز التي انتقلت إليها من الصين ، ومن المصانع التي كانت تنتج هذا الحرير والأقمشة القصبية ذات الخيوط الذهبية الآتية من الهند .

ولهذا عملت السلطنة المملوكية على تقوية حلقة الوصل بينها وبين أطراف البلاد المتباعدة عنها كحلب ، عن طريق البريدية لإحكام قبضتها عليها لمعرفة أخبارها والاطمئنان على استقرارها والوقوف على التهديدات التي كانت تتهددها ؛ ووصول أوامرها إلى نوابها لتنفيذها .

فأنشأت فرقة خاصة من الفرسان أطلقت عليهم : البريدية ؛ وأنشأت لهم مراكز تبتعد كل منهم عن الأخرى بمسافة ١٢ميل ، وكان كل مركز من هذه المراكز يقوم على رعاية عدد من الخيول وأبراج الحمام وخدام لتربيتهم ورعايتهم ، وكان لأولئك الخدام والبرجية والفرسان رواتب . وبخلاف الحمام والفرسان كان يوجد ما يسمى بالمناور وهى إشعال النيران ليلاً، والدخان نهاراً، على قمم الجبال والأماكن المرتفعة لنقل الرسائل، وكانت هذه أسرع وسيلة للإبلاغ عن تحركات العدو وكانت الرسائل التي حملها البريد وجاء بها الحمام الزاجل من الشام لا تطمئن باستقرار الأحوال على الحدود الشمالية ، لتعرضها لهجمات آل عثمان على شمال حلب أكثر من مرة .

وزادت الهجمات مما كان الوضع يزداد سوءاً وذلك فى عهد السلطان قنصوة الغوري آخر السلاطين المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر والشام . وأبلغ نائب حلب خاير بك السلطان الغوري بأمر هذه الهجمات ، وهذه الحشود العسكرية التي تهدد الحدود الشمالية للسلطنة .

قنصوه الغوري والسلطان سليم الأول

وكانت علاقة السلطان الغوري بالسلطان سليم الأول علاقة مضطربة ؛ لا سيما بعد أن هرب شقيقه ولجأ إلى السلطان الغوري فأعطى له الحماية والأمان ، فأثار حنق السلطان سليم وصمم على تهديد السلطنة وقام بهذه المناوشات .

وحين علم السلطان الغوري بذلك عقد العزم على السير إليه وملاقاته وتأديبه على أفعاله ؛ فأمر بتجهيز الحملة وإعدادها للسفر إلى حلب للقضاء على السلطان سليم ، ووقف خطره وحماية السلطنة من شرور آل عثمان . والسلطان الغوري هو الأشرف أبو النصر قنصوة الغوري ابن بيسردي الشركسي الحبشي ، ولد فى سنة ٨٥٠هـ ١٤٤٦م .

وكان مملوكاً للسلطان قايتباي الذي أعتقه لذكائه الشديد وشجاعته وعيَّنه فى جملة مماليكه كأحد المحافظين وصار يترقى فى المناصب حتى تولى الحكم وكان عمره حينئذ ٦٠ عاماً . وهو السلطان الرابع والعشرين من سلاطين المماليك الشراكسة بمصر .

أبواب القاهرة

وكانت القاهرة فى هذه الفترة محاطة من كل جانب بسور هائل به عدد كبير من الأبواب ، منها باب الفتوح وباب النصر وباب زويله وباب البرقيه ، وكانت مكونة من حارات وأزقة لها باب يغلق عليها ويفتح نهاراً ؛ وكانت الحارات ضيقة ملتوية لاتسع لمرور شخصين معاً فكانت بيوتها رطبة لعدم تسلل الشمس إلى هذه الحارات بفعل الرطوبة . وكان أغلب القاهريون يعملون بالدكاكين والحوانيت والأسواق والحمامات ، وفى الحمالة والمكارية والنوتية ، بخلاف أصحاب المهن والصناع الآخرين ؛ وكان الأزهر منارة الفكر والتعليم يدرس فيه أبناءهم قواعد الشريعة والصرف والنحو .

وكانت من أعظم أسواق القاهرة هي وكالة الغوري التي تنتهي عند باب زويلة الشهير بباب المتولي . وكانــت قلعــة الجبــل [صلاح الدين] من أخص القلاع على الجبل ، لها سور هائل منيع يصد عنها أي معتد .

وكانت مياه النيل تنقل إلى القلعة بواسـطة سـور مجـرى العيون ؛ الذي كان ينقل الماء بواسطة سـواقي ترفعهـا إلـى المجرى لتصل إلى القلعة التي كانت مقر الحكم والديوان السلطاني الذي تدار منه شئون الدولة .

القاهرة فى عيون الرحالـة

ويصف الرحالة القاهرة وقتئذ بأنها مدينة كبيرة تحتوي على أربعة عشر شارع لكل شارع بوابتان من جهتـين وحارسـان لإشعال القناديل بالزيت ويحاط بها سور له أكثر مـن بوابـة. وتمتاز للقاهرة بكثرة منازلها وضيق دروبها وطرقاتها وعـدم استقامتها. واكتظاظها بالطبقات الشعبية. وشـوارعها غطـت طرقاتها بألواح خشبية أو بحصر وسقف من القش لحماية المارة من حرارة الشمس ولذلك كان مناخ تلك الطـرق رطبـاً فـى الصيف .

وكانت تفرض الدولة على كل حانوت أن يضع قنديل يضيء طوال الليل إلى الصباح .

وازدهرت الأسواق وتعددت فى عصر المماليك ، وقد اختص بعضها بالملابس والآخر بالمواد الغذائية وغيرها من البضائع ومنها سوق الجوخيين وسوق خان الرواسين وسوق الشماعين وسوق الدجاجين وسوق الفانوسية ..

وكان بالقاهرة آنذاك ما يقرب من مائتي ألف جمل لحمل المياه التي يأتي بها السقاؤون من النيل ويطوفون بالأسواق والمنازل لإمدادها بما تحتاج إليه من المياه .

وكان يتولى الأمن بالقاهرة ما يعرف بوالي الطواف [صاحب العسس] ومهمته تحقيق الأمن فى الأسواق والحارات وتقديم تقرير يومي للسلطان يطلعه فيه على مجريات الأمور اليومية من قتل وحرق وسرقة .

ووسيلة التنقل هي الحمير التي تعتبر أكثر المطايا لطفاً وأحسنها منظراً وأسرعها فى المشي ، أما الخيول فكانت لطبقة المماليك .

ويصفها بن بطوطه : "هي أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنظارة مجمع الوارد والصادر تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها " .

ساعة الصفر

وفى سنة ١٥١٦م .. استيقظ الأهالي بمصر ، على صوت دقات الطبول والزمارين والمنادين وصهيل الخيول وحركات الفرسان ، وهياج العامة وصياحهم التي كانت تطلق فى ساحة الرميلة أسفل القلعة ، وهى تدعو لجيشها المظفر فى حملتها إلى الشام لتأديب من اجترأوا على تهديد حدودها الشمالية .

فتدافع المصريون ، من كل الحارات والساحات ، واشرأبت أعناقهم تتفرج على جيش الحملة الذي أعده السلطان الغوري، وقد كان يتصدره ؛ وهو فى أبهى حلله العسكرية على صهوة جواده الأبيض ، وبجواره وخلفه الفرسان بالبيارق والأعلام وفرسانهم المطهمة ، وملابسهم العسكرية المزركشة ، وكان جيشاً يسد عين الشمس لا أول له ولا آخر . الكل يقف فخوراً معتزاً بقوته العسكرية الكبيرة، ويلهج للسلطان والجيش بالدعاء.

كان العلماء ورجال الدين والأعيان يرافقونه ، ليمنحوه الدعاء والثناء والبركة ، ويتمنون عودته غانماً منتصـراً مـن حملتـه المظفرة وهم يقفون لتوديعه . بينما ربت السلطان الغوري على ابن أخيه طومان باي ، الذى قبّل يديه ، رافعاً يديه إلى السـماء مودعاً إياه ، وفى رقبته مسئولية الأمانة التي أوصاه بهـا فـى غيابه وهى حكم مصر لحين عودته من حملته على الشام .

الطريق إلى المعركــة

وانطلق الجيش الذى كان يتكون من : عشرة آلاف فرقة من فرسان المماليك وخيالة العرب على خيولهم المطهمة والمزركشة باللؤلؤ والمرجان ورجال البدو من حلفائه فوق جمالهم والطبالين والزمارين وحاملي البيارق فى موكب حافل وصـناديق المـال على ظهور الجمال يحدوها الصيارفة والمئات منها تجر العربـات محملة بمعدات القتال والذخائر ؛ إلى جانـب الفيلـة والجمـال والبغال تحمل التموين وفى أثرها الحدادون والنجارون وعمـال البناء وكل ما يلزم المعسكر من معدات ومؤن وذخيرة .

وانطلقت الحملة من ميـدان الرميلة [القلعة] صوب بلبيـس

ومنها إلى العريش ثم رفح إلى غزه وكانت تأخذ أقساط من الراحة فى كل بلد تمر فيه والتي يهرع أهلها مستقبلين السلطان بالتهليل والترحاب متخذة طريقها إلى حلب. وما أن اقتربت من أبواب دمشق حتى كان الأمير سيباي نائب دمشق على رأس أهالي دمشق الذين كانوا يزغردون وينثرون الدنانير الذهبية على موكب السلطان وتفرش الأرض بالسجاد الأحمر الفارسي فى يوم لم تشهد له دمشق مثيلاً منذ أيام الفتح الإسلامي .

وتعسكر الحملة فى قلعة دمشق تأخذ قسطاً من الراحة ثم تواصل مسيرها بعد أن ينضم إليها مقاتلي دمشق بأسلحتهم وخيولهم ، يتقدمهم الأمير سيباي .. ينضم إلى أمراء الحملة المرافقين للسلطان . وهو ما فعله أيضاً كلاً من أمير حمص وحماه والكل عاقد العزم على تحقيق النصر ضد آل عثمان .

وحين زف المنادين خبر قدوم الحملة المصرية وعلى رأسها السلطان زحف أهالي حلب إلى استقباله مهللين .. صائحين .. مرحبين بالطبول والدفوف والزغاريد ، والحملة تشق طريقها وسط الجماهير الملتفة حولها بصعوبة بالغة إلى أن وصلت إلى قلعة حلب ليتخذها السلطان مقراً لقيادة الجيش ومركزاً للحكم؛

وعسكرت الحملة للراحة بعد عناء رحلتها الطويلة من القاهرة استعداداً لملاقاة العثمانيين . فكانت البيارق والأعلام المصرية السورية ترفرف على القلعة .

آثار حلب

كانت حلب تتميز بأسواقها المسقوفة وأزقتها الضيقة المبنية من الحجر الأبيض الكبير وأرضها مبلطة بالبلاط الصخري الصغير، وتنتشر بيوتها العريقة على جانبي هذه الأزقة الجميلة .

وكل بيت أمامه حوش ، وهو مكون من دور واحد ترتفع أسواره إلى أعلى ويتكون من غرفتين أو ثلاث مع حديقة داخلية ونافورة وإيوان عريق ، وتنتشر الحمامات العمومية عبر الأزقة بجانب الأسواق .

كما يوجد صورة طبق الأصل للجامع الأموي الذي بناه الملك مروان بن معاويه بدمشق ويسمى جامع المدينة ؛ وبه مقام سيدنا زكريا ، وبنى هذا الجامع على نفس مساحة وشكل الجامع الأموي فى دمشق حتى المئذنة ، ويفتح على السوق وعلى الشوارع العمومية .

وكان حيها القديم المبني من العصر البيزنطي من أروع الحارات التي وجدت بالشرق ، وبها الأسواق والخانات المتخصصة في نوع معين : كخان الخياطين وخان الحرير وخان السجاد وخان الزيت وخان الفستق وغيرها .

أما القلعة وهى حصن منيع يرتفع على سطح الأرض بمساحة شاهقة ، وكأنها بنيت على جبل يتوسط المدينة ، وتنزل جوانبها فى انحدار لا يستطيع أحد تسلقها ، ويلتف حولها مجرى مائي منيع وكأنه نهر عريق يلتف حولها من كل جانب ، ويمدها هذا النهر بالماء ويكون عائقاً مائياً ، يصعب على الأعداء اجتيازه . وباب القلعة من الأبواب المنيعة ، حين يغلق تنعزل القلعة عن الأرض فتصبح حصناً شامخاً لا يمكن الوصول إليه بأي حال من الأحوال .

أنهار حلب

وكان بحلب عدد من الأنهار والبحيرات مثل نهر الفرات الذي يمر بجوار ملطيه وسميساط وقلعة الروم . ونهر حماه الذي يسمى العاصي ، ونهر قلعة جعبر ، وأيضاً نهر قويق .

ويخرج هذا النهر من قرية تسمى الحسينية ، بالقرب من اعزاز ، حيث يخرج الماء من عين كبيرة ثم يجري بين جبلين ويتجمع بماء عيون سيناب ، ثم يجري إلى دابق ، ويمر بمدينة حلب حيث يمده عدة عيون أخرى بعد حلب مثل : عين المباركة، وينتهي إلى قنسرية .

وشق نواب حلب مجار للأنهار ؛ فقد شق الأمير سيف الدين سيودون نائب حلب نهراً يصل بين قويق ونهر الساجور . وتشير المصادر إلى أن هذا النائب تحمل تكلفة شق المجرى من ماله الخاص .

حلب .. صناعة وتجارة وفن

وكانت أشهر الصناعات فى حلب هي صناعة الزجاج المزخرف إذ تفنن الصناع فى صناعة أشكال مختلفة منه ، أضفى الفنانون عليها رسوم جميلة .

وكذلك صناعة الصابون الأحمر والأصفر والمعطر ؛ وعصر الزيوت : زيت الزيتون ، وصناعة الحرير والقماش المقصب .

واشتهرت بلدة منبج بتربية دودة القز لكثرة أشجار التوت بها، ومن ثم وجدت الثياب الحريرية .

وكانت الأسواق تسمى خانات ، وينفرد كل خـان بعـرض بضائعها : خان العسل .. وخـان لبيـع البـيض .. وأسـواق الأخشاب .. وأسواق الحرير . وأحياء حلب القديمة : الجلوم ، القلعة ، باب النيرب ، الكلاسة..

مجلس الحـرب

انعقد في القاعة الكبرى بقلعة حلب برئاسة السلطان قنصـوة الغوري والأمراء والعلماء والمرافقين للحملة ، ونواب الشام : نائب دمشق ونائب حماه ونائب حمص ونائب حلـب ونائـب القلعة وأمراء السلاح وكبار القادة .

وحين بدأ السلطان مشاورة المجتمعين بأمر الحرب ، إذ بنائب دمشق الأمير سيباي يقبض على الأمير خاير بك نائـب حلـب وجره من طوقه بين يدي السلطان ، وقال لـه : يـا مـولاي السلطان إذا أردت أن ينصرك الله على عدوك فاقتل هذا الخائن.

وكان خاير بك كالشاة فى يد السبع ، وإذا به ينـتفض ويـتهم الأمير سيباي بالكذب وأن ولاءه للسلطان وولـي نعمتـه ولا يستطيع نكرانها ، والأمير سيباي يقول للسلطان : لقد أرسلت لمولاي كثير من الرسائل أكشف فيها هذا الخائن واتصاله بآل عثمان فيقف الأمير جان بردي الغزالي قـائلاً للسلطان : يا مولاي لا تفتن العسكر ، فيقاتلون بعضهم البعض ، وتذهب أخبارنا لعدونا ، ويزداد طمعهم فـيكم ، ويضـعف شـوكتكم ، والرأي لكم .

عبث السلطان قنصوه فى لحيته ، وتنكر رسائل سيباي التي كان يرسلها سراً للسلطان يخبره فيها بخيانة خاير بك ، إلا أن السلطان كان يعتقد أن هذه الرسائل بسبب غيرة الأمير الأول سيباي من الثاني خاير بك .

وشاء القدر أن الوقت لم يسعف السلطان فى الوقوف على الحقيقة لأن انشغاله بإعداد الحرب هو الذي يهمه فى الوقت الراهن ، وأمرهم السلطان بإنهائهما هذا الخلاف ، وأن يتحالفوا ثانية ولا يخون أحداً ، والخائن يخونه الله ، وأن يتأهب كل واحد منهم ؛ ويستفيق لنفسه .

ثم أمر الأمير كرتباي بأن يستطلع الحدود ليكشف خبر السلطان سليم وعساكره .

ثم يأخذ مشورة العلماء والمشايخ المرافقين له ، فأجمعوا على أن الموقف يتطلب حقن الدماء بين المسلمين وأن يتدخل كل من كان له حجة فى وقف هذا النزاع .

رسول السلطان يلبس طرطور ويركب حماراً أعرج

فمال السلطان قنصوه إلى رأي العلماء وقرر إيفاد رسول يكون فصيح اللسان قوي الحجة ، فوقع الاختيار على الأمير قلباي ويرافقه عشرة فرسان يتم اختيارهم لهذه المهمة ليقابلوا السلطان سليم ويعرضوا عليه وقف تهديداته لتخوم السلطنة وإتمام الصلح بينه وبين السلطان قنصوه الغورى .

وفى اليوم التالي ، كان الأمير قلباي يغادر حلب إلى معسكر السلطان سليم ومعه عشرة فرسان وهم يرتدون أبهى حللهم العسكرية المزركشة وخيولهم المطهمة ، وكانوا من شدة حسن خلقهم كالعرائس من شدة ما يتحلون به من فخامة وأبهة . وكل من يراهم يتعجب فى خلقهم وحسن خيلهم .

وحين شاهدهم السلطان سليم بهذه الوجاهة اشتد غيظه ولم يسمح للأمير قلباي بالكلام بل اعتقله يومين وقام بذبح الفرسان العشرة ، لأنه أدرك أن الغوري كان يقصد من إرسالهم على هذه الوجاهة والفخامة أن يفت هذا فى عضد جنوده حين يروهم فيدركون أن فرسان الغوري لهم نفس السمات والقوة ، فتتزعزع عزائمهم وتخور قواهم وهو ماقصده الغوري .

وإمعاناً فى رفض هذه الرسالة أفرج عن الأمير قلباي وألبسه ملابس ممزقة وطرطور وأركبه حماراً أعرج ليكون رداً بليغاً على رسالة الغوري إليه .

مرج دابق .. وقطع رأس السلطان الغوري

وما أن علم الغوري بذلك حتى أمر قواده بالتحرك من حلب لملاقاة السلطان سليم فى مرج دابق على مسيرة يوم من حلب الذى عسكر فيها يوم الجمعة . وظل بها يومين حتى كانت المعركة يوم الأحد الموافق الثالث والعشرون من رجب سنة ٩٢١هـ ـ ١٥١٦م .

اتخذ جيش السلطان الغوري مواقعه، وكان كل أمير على رأس

فرسانه ، واتخذ الغوري مكانه يحيط به الجلبان والفرسان الذين جهزهم وجعلهم يحيطون به إلى أن اتضح النهار فإذا بصفوف العثمانيين قد بانت صفاً بعد صف والأعلام الملونة من الميمنة إلى الميسرة وهم سائرون لمقابلة جيش السلطان . وإذا بنائب حمص الأمير أصلان بن براق يأخذ قنطاريته بيده وأطلق العنان لجواده هاجماً على العثمانيين يطعن فى الفرسان شمالاً ويميناً ويتبعه الأمراء والفرسان وزادت حميتهم واشتياقهم لدحر العثمانيين .

فتحول النهار لليل حالك السواد بفعل طلقات المدافع والبارود وحوافر الخيول التي كانت تثير الغبار .

وكان جنود السلطان الغوري يقاتلون ببسالتهم ويبلون بلاءً حسناً ويتميزون على العثمانيين بفروسيتهم وتحكمهم فى خيولهم فى الفرّ والكرّ والهجوم حتى وصلوا إلى وطاق السلطان سليم . وكان الجنود العثمانيين يتساقطون قتلى؛ وبلغ عدد قتلاهم ألفين وخمسمائة رجل فى مقابل خمسمائة فقط من رجال السلطان الغوري حتى دخل فرسان الغوري وطاق السلطان سليم وغنموا منه الكثير وعادوا به إلى السلطان الغوري ليفرحوه بما غنموا .

والسلطان الغوري مستبشر بالنصر ؛ ولكنه كان واقفاً وسط فرسانه بلا قتال لدرجة أن أمرائه عاتبوه على عدم إشراك فرسانه فى مقاتلة العثمانيين مما أثار حنقهم .

وبدأوا يعتقدون انه يضحي بأمرائه فى مقابل الحفاظ على فرسانه للتخلص من أمراءه فى هذه الحرب ، واستغل خاير بك هذا الخلاف حتى صاح وسط المعركة بأن السلطان الغوري قتل؛وانسحب على اثر ذلك هو وفرسانه .

وكذلك تبعه جان بردي الغزالي هو وفرسانه فحدثت البلبلة بين أمراء الغوري وتراجع منهم عدد كبير ، ممنا انتهز العثمانيين هذه الفرصة وقاموا بالانقضاض عليهم وهم منسحبين، بينما السلطان الغوري يصيح بأعلى صوته بأنه حي لم يقتل ؛ ولكن صوته ذهب أدراج الرياح مع صليل السيوف وصهيل الخيول وفرقعة المدافع والبارود ، حتى انقلبت الكفة وصارت لصالح العثمانيين .

واستشعر الأمراء الذين بجوار السلطان الغوري الذي وقع من على حصانه مغشياً عليه خطراً وخوفاً من أن يقوم العثمانيون بالقبض عليه والتمثيل برأسه في بلادهم ، فأمر أحد

الأمراء أحد فرسانه بضرب السلطان الغوري وقطع رقبته ودفنها في جب حتى لا تقع في أيدي العثمانيين.

ونفذ الأمر بالفعل وقطع رأس السلطان الغوري ، وتقدم السلطان سليم فاتحاً حلب برفقة الخائن خاير بك ليعينه بعد ذلك نائباً على مصر مكافأة له على خيانته لسلطانه .

عصر العثمانيين

ويتقدم السلطان سليم وفرسانه ليقابلوا السلطان طومان باي فى موقعة الريدانية ، فينتصروا عليه بعد بلاءه الحسن ، ثم يقوموا بشنقه على باب زويله بالقاهرة .

ويبدأ عصر جديد هو عصر العثمانيين ، والذي ينتهي بدخول الحملة الفرنسية إلى مصر ، وتولى بعد ذلك محمد على أريكتها ، ليبدأ صراع جديد تكون سوريا مسرحاً جديداً لأحداثه، وتعود كرامة الجيش المصري بعد ثلاثة عقود ومائة سنة حين انتصر الجيش بقيادة إبراهيم باشا على الجيش التركي في موقعة حمص ، وتمحو هذه المعركة الهزيمة التي لحقت به فى معركة الريدانية ودخول سليم الأول مصر .

الفصل الثالث

محمد على وإبراهيم باشا

محمد على وتحديث مصر

حين تولى محمد على أريكة مصر وأصبح والياً عليها بفعل إرادة الشعب المصري الذين أجلسوه عليها فى سنة ١٨٠٥م ، طفق يفكر فى إقامة دولة حديثة تأخذ بأسباب المدنية الحديثة على غرار الدول الأوربية .

فأرسل البعثات وأقام المدارس والمصانع وأنشأ ترسانة بحرية فى الإسكندرية لتصنيع السفن واستعان بالمهندسين والضباط الفرنسيين الذين تركوا الخدمة بالجيش الفرنسي ؛ مثل سليمان بك الفرنساوي في تحديث الجيش المصري وتحديث أسلحته على غرار الجيوش الأوربية الحديثة إلى أن أصبح الجيش المصري جاهز للقيام بالمهمات التي تسند إليه .

وحين ثار الوهابيون على الخلافة التركية بالحجاز ، طلب السلطان التركي من محمد علي إخماد هذه الثورة وإعادتهم للحظيرة العثمانية ، فأصدر محمد علي أوامره للجيش المصري بالتحرك إلى الجزيرة العربية لإخضاع الوهابيين ، ونصب إبراهيم باشا ابنه قائداً على الجيش .

ونجحت القوات المصرية في إخضاع الجزيرة العربية لحكم محمد علي والقضاء على الحركة الوهابية ثم قادها بعد ذلك بغزو السودان وضمها لمصر فامتد حكم محمد علي وأولاده إليها. وبفعل خبرة الجيش المصري في هذه الحروب لجأ السلطان العثماني لمحمد علي طالباً منه نجدته وإرسال الجيش المصري إلى اليونان لإخماد ثورة نشبت هناك ضد الحكم العثماني تسمى ثورة الموره .

وأرسل محمد علي أسطوله إلى هناك بقيادة إبراهيم باشا ، وحقق انتصارات ساحقة ، لولا أن تحالفت انجلترا مع وروسيا والنمسا ضد الأسطول المصري ، فانسحب الأسطول المصري إلى الإسكندرية بعد معاهدة تمت بين محمد علي ودول الحلفاء . فاستطاع محمد على أن يعوض ما نقص فى السفن الحربية المصرية ، وجَنَّدَ عدداً أكثر بالجيش ليستعيد لياقته .

محمد علي يواجه الباب العالي

وتطلع محمد على إلى سوريا طامعاً فى ضمها إلى أملاكه ؛ فأصدر أوامره لابنه إبراهيم باشا بصفته قائد الجيش بالتحرك صوب الشام لضم سوريا لحماية الأراضي المصرية من أي هجوم عبر سوريا .

حيث تعتبر سوريا البوابة الشمالية لمصر ومنها غزا الغازون مصر مثل الهكسوس والفرس والإسكندر الأكبر والمغول والصليبيين ، وتحرك الجيش المصري فاتخذ نفس الطريق الذي سار فيه الجيش المصري السلطاني متجهاً نحو سوريا ، وقام بفتح عكا ويافا وخان يونس وغزه ودمشق وحلب .

وبسط نفوذه على سائر هذه الأرجاء بعد تحقيق نصر ساحق على القوات التركية التي زحفت لتوقف تقدم الجيش المصري عند حمص ، ولقنها إبراهيم باشا درساً قاسياً فى فنون القتال والحرب مما جعلها تفر مهزومة من أمام القوات المصرية وتتراجع لتعود من حيث أتت ؛ والجيش المصري يتابع مسيره إلى أن استقر فى حلب ، ليعد عدته ويلم شمله ويأخذ قسطاً من الراحة ليقرر بعد ذلك الخطوة التالية .

أحداث مجيدة على قاعدة تمثال

وحين تذهب إلى ميدان الأوبرا بالقاهرة .. يطالعك تمثال إبراهيم باشا راكباً فرسه بطلعته المهيبة وبكبريائه الشامخ . ومدون على قاعدة التمثال الحروب التي خاضها طوال حياته ، وحقق فيها انتصارات مدوية للجيش المصري : أدنه ، بيلان ، كلس، قوينه ، نصيبين .

وتقف مشدوهاً من أسماء هذه المدن لأنك إن لم تقرأ فتوحات إبراهيم باشا ، فلن تعرف أين توجد هـذه الـبلاد ؟ وهـو مـا سنحاول الإجابة عليه .

بدأت حملة إبراهيم باشا سنة ١٨٣١ ، وبالتحديـد فـي يـوم ٢٩/١٠/١٨٣١ .. بدأ الجيش البري التحرك من معسكر الخنكه بالقاهرة بقيادة إبراهيم باشا يكن قاصداً الحدود السورية ، مـاراً بـ بلبيس ثم الصالحية ، فبئر العبد ، العريش ، ثم غزه ، ثم يافا .. وانتظر الجيش البري في يافا وصول الأسـطول المصـري بالبحر الأبيض المتوسط بقيـادة إبراهيم باشا

وأركان حربه الكولونيل سيف [سليمان باشا الفرنساوي] والتقى الجيشان البري والبحري ، وسارا معـاً ، وواصـل الأسـطول البحري مسيره في البحر محاصراً عكا .

وفضل إبراهيم باشا استمرار المسير ليحتـل مـدن صـور وصيدا وبيروت وطرابلس ، ثم إلى حمـص ، وهنـاك دارت معركة عنيفة كانت أول معركة بـين العثمـانيين والمصـريين انتصر فيها المصريون ، وواصلوا تقدمهم نحو حلـب ، بينمـا تقهقر الجيش العثماني وولى فاراً من حيث أتى .

وفى حلب ، استراح الجيش المصري ، وأعلن خضوع هذه البلاد لحكم محمد على ، بينما تأهـب لاسـتئناف الزحـف ، فواصل تقدمه إلى شمال حلب .

ولكن هذه المرة لم يذهب إلى مرج دابق ، ولكن اتخذ طريقاً آخر هو الموصل إلى مدينة كليس التركية ومنها توجـه إلـى مدينة بيـلان جنوبي الأسكندرونة .

ويبدو أن إبراهيم باشا لم يشأ أن يتجـه إلـى مـرج دابـق ليتحاشى السهل المكشوف لتغير طبيعة الحروب عن ذى قبل ، وحتى لا يحتمي الأتراك بالجبل التركي ، ولاتخاذهم مـواقعهم على قمم جبال بيـلان .

أمعن إبراهيم باشا النظر على مواقع الترك ، فرآهـا منيعـة يصعب على الجيش المرابط فى السهل المنبسط فى سفح الجبل أن ينال منها منالاً ؛ فتوغل إبراهيم باشا ليصعد إلى المنـاطق العالية من طريق آخر شرقاً لينصب مدافعه على الأكمة .

واضطر المصريون أن يسيروا صعداً فـي طريـق وعـرة فاحتملوا فى اجتيازها المتاعب والشدائد الهائلة .

ولما لمح الترك تقدمهم أطلقوا عليهم القنابل ، وبدأت المدفعية المصرية ترد بقوة من على الأكمة على الترك ، بينما تستتر المشاة وراء الأكمة ، واستمر المصريون فى زحفهم شرقاً إلى أن تخطوا مواقع الجناح الأيسر من الجيش التركي فهاجموه من الأمام والجنب هجوماً شديداً ، فتقلق الترك عن مواقعهم وبدأوا فى الارتداد شمالاً ، بينما نجح الرماة المصريون من الاستيلاء على مدافع الأتراك ومواقعهم ، وبدأوا فى إطلاقها على فرسان الأتراك الذين فُوجِئُوا بالقنابل تنهال عليهم من المرتفعات المشرفة عليهم ، والتي احتلها المصريون ، فجاءت الإصابات فى قلب الجيش التركي موجعة ، مما جعل الأتراك يتقهقرون وينسحبون من أرض المعركة التي احتلها المصريون .

وبذلك انتهت المعركة بهزيمة الترك وفرارهم شمالاً ، ورفعت الأعلام المصرية على مدينة بيلان .

كانت نكبة الجيش التركي فى هذه الواقعة نكبة ساحقة ، واختفى قائده العام هائماً على وجهه متنكراً خوفاً من الفضيحة ، ونجا بنفسه من القصاص الذي هو لابد ملاقيه إذا عاد إلى الأستانة وفى تبعته هذه الهزيمة البشعة .

وبهذا النصر المبين اجتاز المصريون حدود سوريا الشـمالية ودخلوا ولاية أدنه من بلاد الأناضول وعبـروا نهـر حيحـون وسيحون واحتلوا أدنه في الأراضي التركية .

وأراد الأتراك تنظيم صفوفهم ، ووقف زحـف المصـريين ، فأعدوا جيشاً جديداً كان خليطاً من أجناس السلطنة العثمانيـة لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية ، فلا غرو أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية ؛ خاصة إذا كان الجيش الذي يقاتله قويـاً بوحدته ، متماسك الصفوف ، معتزاً بقيادته .

واصطف الجيشان في مواقعهما يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر ، واكتشف إبراهيم باشا ثغرة تفصل بين الفرسان الأتـراك والمشاة أثناء زحفهم . فاستغل هذه الثغرة وتقدم فيهـا بجيشـه ليفصل الفرسان الأتراك عن مشاتهم ، وبدأت القنابل والمدفعية تدك الأتراك فتقهقروا ، فتابع المصريون تقدمهم ، وأرادت فرقة الفرسان التركية الإحاطة بميسرة الجيش المصـري ، ولكنهـا تلقت ضربات موجعة وحصدتهم حصداً .

وبفضل ثبات ميسرة الجيش المصري تحقق النصر وتشتت الترك وولوا الأدبار . وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركي وأسر قائده ونحو خمسة أو ستة آلاف جندي كما زعم الجانب المصري أنه أسر منهم ٤٦ مدفعياً ، وعدد كثير من الرايات .

وأصبحت معركة قونيه صفحة مشرقة فى التاريخ الحربي المصري ، ثم تقدم الجيش المصري ليحتل كوتاهيه ، وإقامة الحكم المصري فى أزمبر ، وأصبح بينه وبين الأستانة خمسين فرسخاً .

وهذه المعارك أثبتت قدرة المقاتل المصري على الصمود والتصدي ، وإيمانه بالله ، وثأره الدائم لكرامته وكرامة بلاده . فهو بهذا الانتصار الرائع أعاد الكرامة وثأر لموقعة مرج دابق التي شابها الخيانة على النحو الذي عرضناه .

كانت انتصارات الجيش المصري المتوالية تحت محط أنظار قارة أوربا بأكملها فكانت تتابعها لحظة بلحظة ، إلى أن وصلت هذه الجيوش إلى بعد ٥٠ فرسخا من الأستانة وخصوصاً عقب انتصارها فى نصيبين . فبادرت بالتحرك لمعرفة نوايا ابراهيم باشا قائده حيث خشيت من تقدمه فى الأراضي الأوربية ثم إيغاله فيها .

أحقـــاد الغـــرب

وعلى الفور ، كانت هناك مقابلة عاجلة يطلبها السفير الفرنسي بوالكونت فى الأستانة للاجتماع بإبراهيم باشا ليدور نص هـــذا الحوار ، [وسنوجز هذا الحوار فى مقتطفات سريعة من مرجعنـــا الأساسي : عصر محمد على للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي] ..

ابراهيم باشا: إنه ليؤلمني أن الدول الأوربية منعتني مـــن متابعـــة الزحف .

بوالكونـــت : إنه قد آن الأوان لوقف سموكم عن الزحف ، فإنه لم يكن أمامكم سوى بضـــع خطـــوات لتصـــل الجنـــود المصريين بلاسكدار .

ابراهيم باشا: ولكنني كنت شديد الرغبة فى دخول الأستانة علـــى رأس جيشي .

بوالكونـــت : ماذا تقصدون سموكم من الذهاب للأستانة وماذا كنتم فاعلين بها ؟

ابراهيم باشا: ما كنت أدخلها للهدم بل للإصـــلاح ، ولكـــي أقـــيم حكومة صالحة بدلاً من الحكومة العاجزة الحالية .

بوالكونــت : إن دخول سموكم الأستانة ، وتغيير الحكومة ســوف يحدث انقلاباً ، يفضي إلى مشاكل قد تشعل نار الحرب فى أوربا بأسرها .

ابراهيم باشا: إنك واهم فيما تظن ، فإن هذا الانقلاب سيتم بهــدوء دون أي مقاومة ، فالســكان علــى جــانبي البســفور والدردنيل يطلبونني لإحداث الانقلاب ؛ ولو تــم هــذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية تقوم علــى أنقاض هذه السلطنة المفككة .

ثم سكت ابراهيم باشا قليلاً عن الكلام وبادر القول :

لماذا تحقد الدول الأوربية كل هذا الحقد علــى الأمــم الإسلامية ؟

بوالكونــت : إني لم أفهم كلام سموكم ..

إبراهيم باشا: إنك تقول الآن أن وصول جيش إلى إسكدار سيحدث ثورة في الأستانة وإني أوافقك الرأي .

ولكن أليس هذا دليلاً على أن الأمة الإسلامية لا تريــد حكم السلطان محمود، فبأي حق ترغمــون هذه الأمــة

على ما لا تريده ، وهل يحق لكم يا معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها ؟

وحينما ثار البلجيكيون ، وطلبوا تأليف مملكة مستقلة ، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم ، أخذتم تنادون أن لكل أمة الحق في اختيار ولي أمرها ونظام الحكم الذي تبتغيه ، بل إنكم ساعدتم اليونانيين في ثورتهم ؛ فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق ؟

وهذا الحوار قد سجله البارون بوالكونت في منكراته وأضاف أن الفرق بين محمد علي وابنه إبراهيم يكمن في أن الأول يمثل فكرة الحكم المطلق ، أما الثاني فكان أقرب إلى المبادئ الحرة ، وقد خالف أباه في مسألتين جوهريتين :

الأولى .. لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذي اتبعه في مصر وسوريا . **الثانية** .. أنه كان يجاهر برأيه في إحياء القومية العربية ليعيدها إلى وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .

حاكم مصر يغضب الدول الأوربية

كانت الدول الأوربية ترقب باهتمام تقدم القـوات المصـرية بالأراضي التركية مما أثار حنقها على محمد علي وأرسلت إليه الرسائل تهدده وتطلب منه سحب قواته منها ومن سوريا .

وكانت تتزعم هذه الدول بريطانيا التي كانت ترى في وجـود قوة قوية في مصر يهدد مصالحها في الهند . إذ كانـت الدولـة المصرية تتسع رقعتها من اليمن على البحر الأحمـر وجزيـرة العرب إلى جبال طوروس بتركيا ، مما سوف يزعزع وجودها في الهند ويهدد وجودها في البحر الأحمر والمتوسط . أيضـاً ، فكانت تثير القلاقل في سوريا ، وبثّت جواسيسها للثـورة علـى الحكم المصري هناك ، ونجحت فعلاً في إثارة هذه القلاقل . إلا أن إبراهيم باشا استطاع أن يخمد هذه الثـورات ضـد الحكـم المصري .

ظلت الحياة الاجتماعية والثقافية تشهد مزيـداً مـن التقـدم والاستنارة فى عهد محمد على . وهو الأمر الذي كان يثير كثير من الاضطرابات والاعتراضات لدى الحاقدين من الغرب.

تحديث سوريا فى عهد محمد على

وظلّ الحكم المصري للشام من أخصب المراحل التاريخية هناك حيث اهتم محمد علي بتحديث الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فأمر بشق الترع والأنهار لزيادة استزراع مساحات شاسعة لأشجار الزيتون .

واهتم بشئون القضاء ؛ وسرعة الفصل فى القضايا . مما كان له أثره فى دفع عجلة الإنتاج والنهوض بالاقتصاد السوري . وأصدر عملات باسمه وباسم ابراهيم باشا حتى ارتبط فى ذهن العامة بسوريا بأن النقود هي مصاري نسبة إلى مصر التي كانت ترمز فى هذا الوقت ببلد الرخاء والرفاهية باعتبارها أم الدنيا . ومازالت تسمى النقود هناك بالمصاري إلى يومنا هذا ؛ وهي أثر من آثار هذه الحقبة التاريخية .

لغز اختفاء الأب توما

وأما عن القضاء فى عهد محمد علي بسوريا ، فقد سجلت المحكمة الشرعية بدمشق واقعة طريفة عن جريمة قتل عرفت بقضية الأب توما .

ونوجز وقائعها حين اختفى الأب توما وخادمه ابراهيم عماره . وكان الأب توما رئيس الكنيسة الكاثوليكية بدمشق وهو إيطـالي الجنسية ، ومعروف عنه نجدته وإسعافه لأي مريض ؛ وفجـأة اختفى ولم يعثر له على أي أثر . وبدأت التحقيقات لكشف سبب هذا الاختفاء ، فانتهت إلى اختفائه بحارة اليهود بدمشـق ؛ حـين استدعى على عجل لإسعاف مريض هناك ، ومنذ دخوله الحارة تمّ اختفاءه .

وظلت السلطات تعمل تحرياتها إلى أن قبضت على حـلاق الحارة وأحد التجار اليهود واثنين آخرين للتحقيـق ، فـاعترفوا بقتلهم للأب توما وخادمه ذبحاً وحرصوا على تجميع دماء الأب توما وخادمه فى طشت .

لقد صدرت تعليمات للحلاق وللثلاثة الآخرين من رئاسـتهم الدينية ، باستحلال دماء الأب توما ، ليس هذا فقط ، بل وأيضـاً استعمال دم الذبيحتين فى صنع فطيرة توزع فى أحـد أعيـادهم الدينية على كبار رجالهم !! فتمّ سجن المتهمين الأربعة فى عهد شريف باشا محافظ دمشق وكان ذلك فى ١٨٤٠/٢/١٥ .

الوالي يعفو عن الجناة لأسباب سياسية

فحضر إلى القاهرة كبار رجال الأوربيين ومعهم محامين لمقابلة محمد على ، الذي رحب بهم وسمع دفاعهم ، وأصدر قراره بالعفو الفوري وإخلاء سبيل هؤلاء المتهمين ، وجاء أمر العفو على النحو التالي :

" إنه من التقرير المرفوع لدينا من الخواجات : مونتيفوري وكراميو اللذين أتيا لطرفنا مرسلين من قبل عموم الأوربيين التابعين لشريعة موسى ، أنهم يرغبون الحرية والأمان للذين تم سجنهم من اليهود والذين ولوا الأدبار هرباً من تهمة حادثة الأب توما الراهب الذي اختفى فى دمشق الشام فى شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٥ للهجرة مع خادمه إبراهيم .

فنأمر بالإفراج عن المسجونين والأمان للهاربين . هذه هي إرادتنا .

بصمة خاتم محمد على"

وما أن وصل أمر العفو إلى شريف باشا حتى أخلى سبيل المتهمين ، وأصبح اختفاء الأب توما وخادمه واحد من الألغاز التي يحفل بها التاريخ ، ولم يستطع أحد أن يكشف عنها النقاب حتى الآن .

عـــادل حموده وإبراهيم نافع فى قفص الاتهام

وجدير بالذكر ، أن هذه القضية ، قتل الأب توما وخادمـــه ، شغلت ذهن كثير من الباحثين والصحفيين ، وقد تناولها الصحفي الأستاذ/ عادل حموده ، بجريدة الأهرام ، رداً على الممارســات الشنيعة والمجازر التي ترتكبها القوات الإســرائيلية فـــى حـــق الفلسطينيين لتذكيرهم بما ارتكبوه فى الماضي !

فلم تجد الجماعات الصهيونية مبرراً لمدى فداحـــة وشـــناعة الجريمة ، فحركت الدعوى العمومية الجنائية فى فرنسا ، طبقـــاً للقانون الفرنسي ، بتهمة معاداة السامية ضد الأستاذ ابراهيم نافع رئيس مجلس إدارة الأهرام باعتباره المسئول عن نشـــر مقـــال الأستاذ عادل حموده .

وأصدر قاضي باريس أمراً بمثول رئيس مجلس الإدارة أمامه، إلا أن المحامون الموكلون عنه طلبوا اســتعمال حـــق الإنابـــة القضائية المبرمة فى اتفاقية بين مصر وفرنسا ، فتمّ الاســتجابة لمطلبهم وتم إحالة أوراق التحقيق إلى النائب العـــام المصـــري لاستعمال حق الإنابة ، ومازال التحقيق جارياً .

تلفيق التهمة لليهود بسبب الربا

وهو الأمر الذي أثار الدكتور أسامه الباز ، فنشر فى الأهرام مقالاً يوضح فيه حقيقة قضية الأب توما .

وذكر مستشار رئيس الجمهورية للشئون السياسية أسامه الباز فى مقاله ، بأن الاتهام فى هذه الدعوى ارتكز على عزلة اليهود فى حارتهم ، فى هذا الوقت ، واتهام البعض لهم بممارسة الربا ومصّ دماء التجار ضحايا الربا بالفوائد المتراكمة عليهم ، فكانت هذه القضية وغيرها انتقاماً من اليهود لممارستهم الربا مما أدى إلى إفلاس كثير من التجار .

هذا فضلاً عن أن الديانة اليهودية شأنها شأن المسيحية والإسلام لا يتصور أن تقوم على هذا الزيف الفاضح .

مؤامرات على والي مصر المارق

تفزع أوربا وتضطرب إزاء إصلاحات محمد على وتعترض على نشاطاته الجادة فى النهوض ببلاده. أما محمد علي فلم يكن يأبه بمثل هذه الاعتراضات، وأمر إبراهيم باشا بإخماد هذه الثورات ، في الوقت الذي أراد فيه سلطان الترك تنظيم صفوف

الجيش التركي ، وإعداده الهجوم على القوات المصرية ، وفعلاً نجحت هذه القوات في التقدم وعبور نهـر الســاحور ، وهـو الفاصل بين الأراضي التركية والأراضي الســورية ، فأصــدر إبراهيم باشا أوامره بالتصدي لهذه القوات والهجـوم عليهــا ؛ وسير جيشه نحوها . وبالفعل وقعت معركة عنيفة في نصــيبين تكبدت فيها القوات التركية خسائر جسيمة ، وكان نصراً مؤزراً للعسكرية الفذة المصرية التي لا تقل عن خطط الجيوش الأوربية في الحرب .

ففزعت أوربا مرة ثانية من هذا الانتصار الساحق ، وهرعت روسيا لتنزل جنودها في الموانئ التركية للدفاع عنها خوفاً مــن سقوط السلطنة العثمانية ، وامتداد حكم محمد على لأرجاء هــذه السلطنة مما يهدد الأسطول الروسي عبر البحــر الأســود فــي الدخول إلى البحر المتوسط .

أما بروسيا والنمسا فكانتا تنظران إلى محمد علي بأنه مارق خارج على السلطان العثماني ، وهما لا يشجعان على الثــورات القومية حفاظاً على الأمن والاستقرار ، على نقيض مــا فعــلاه نحو اليونان في مساعدتها بالتحرر عن الحكم العثماني ؛ وهنــا ظهرت نظرية الكيل بمكيالين .

أما بريطانيا ، ففزعت من هذه الانتصارات لأنها في سبيل تكوين إمبراطورية تهدد أطماعها في الشرق كله .

أما فرنسا فإنها خذلت محمد على وتحولت من دور الوسيط إلى نفس موقف الدول الأوربية حماية لمصالحها.

فأرسلت الدول الأوربية رسلها وسفرائها إلى محمد على ليوقف زحفه وإلا فإنها سوف تتحالف ضده وتقوض جيشه وأسطوله .

على اثر ذلك تم توقيع معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بجعل حكم محمد على وراثياً في ظل السلطنة العثمانية ، وانسحاب جيشه من الأراضي التركية والسورية وإعطاءه حكم عكا طيلة حياته ولم يرض محمد علي بهذه المعاهدة .

فقام الأسطول الإنجليزي بضرب بيروت من البحر ، وهدم كثير من بيوتها ، ووزع السلاح على العناصر المناوئة للحكم المصري في سوريا لتثير القلاقل والثورات ضده . وتحت هذه الضغوط لم يجد إبراهيم باشا مفراً من الانسحاب حفاظاً على أمن وآمان هذه البلاد وجيشه وأسطوله وعاد بهم إلى مصر .

وشعوب هذه البلاد معلقة قلوبهم على حب المصريين بعد تحقيق انتصارات مدوية أذهلت العالم أجمع بالقوة المصرية الحديثة التي شيدها محمد على .

المسألة الشرقيـة

شغلت هذه المسألة ذهن وعقول ساسة أوربا وخاصة بريطانيا التي رأت رأي العين كيف تطورت مصر من دولة متخلفة إلى دولة فتية ومن مرحلة النضج إلى مرحلة القيادة والقوة ، وأصبح بها جيش حديث ، وأساطيل بالبحر ، تهدد واقعها في مستعمراتها بالهند والشرق عموماً .

حيث كانت تضع نصب أعينها موقع مصر الفريد ، والذي يتوسط العالم ، وتريد اختلاق الأسباب نحو احتلالها بعد فشل حملتها عام ١٨٠٧ على رشيد بقيادة فريزر . وكتابتها لمعاهدة مع محمد علي للإفراج عن أسراها في مقابل رحيلها عن شواطئ مصر كإعلان صريح عن فشلها.

ونظرت إلى وحدة مصر وسوريا باعتبارها شوكة في حلقها ، فأمعنت التفكير في نقل هذه الشوكة إلى حلق مصر وسوريا ، بإقامة عازل بينهما حتى لا ينهضا معاً، وتستفرد بكل دولة على حدة ، لتجهضها إذا لزم الأمر ، وتمنع أسباب القوة عنها .

فبدأت تشجع اليهود على المناداة بوطن قومي لهم في فلسطين بعد أن كان مقترح له أوغندا أو الأرجنتـــين ، وظلت هي تهيئ أسباب إقامة هذه الدولة ، وذلك باحتلال مصـــر عـــام ١٨٨٢ وإعلان الانتداب على فلسطين في أعقـــاب الحـــرب العالميـــة الأولى وانضمام تركيا لألمانيا الـــذين انهزمـــوا ، وبهـــزيمتهم أعلنت انتدابها على فلسطين ورفع العلم الإنجليزي عليها .

ثم ما لبثت فرنسا أن احتلت لبنان وسوريا وتجـــزأ المشـــرق العربي .

الفصل الرابع

ميلاد دولة على ظهر دبابة

مؤتمر بازل والوطن القومي

عقد أول مؤتمر صهيوني في بازل بسويسرا بزعامة هرتـزل الذي نادى بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين عام ١٨٩٧ ، وذلك بتشجيع من أوربا إلى أن صدر وعد بلفور عـام ١٩١٧ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مـن وزيـر خارجيـة بريطانيا .

ثم يعلن اليهود قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ لتقطع الطريق البري ما بين العريش ودمشق ، بين مصر وسوريا على النحو الذي رأته بريطانيا لتهدم أي محاولات لتحقيق الوحدة العربيـة ما بين الشعبين المصري والسوري كما تتوهم .

ولتفصيل ذلك ، لابد من العودة لنكشف الاهتمـام الإنجليـزي بمصر ، ومتى بدأ وكيف تطور إلى أن استطاع أن يحقق خطته بتقويض الوحدة ما بين مصر وسوريا لأنه رأى أنها عقبة كأود ضد أطماعه .

الثورة الفرنسيـــة ١٧٨٩

اندلعت الثورة الفرنسية فى باريس وأكلت الأخضر واليـابس الملكي، واستطاع الجمهوريين السيطرة على مقاليد الحكم وإعدام الملك لويس وزوجته ماري أنطوانيت، لتزيل حقبة من حقـب حكم أسرة البوربـون بفرنســا، وانقســمت الــبلاد مـا بـين الجمهوريين والملكيين الذين ما لبثوا أن فروا من فرنسا بالنســبة لمن فلتت رقبتهم من مقصلة الجمهوريين، وحمت الثورة نفسها بالدخول فى حروب متواصلة مع الممالك التي تحيط بفرنسا لمنع مد النفوذ الملكي .

وظهرت شخصية عظيمة لفتــت الأنظــار، وهــو نـابليون بونابرت الذي انتصر فى كل الحروب التي خاضها فى النمسا، ولومبارديا، وزادت شعبيته ليصبح شعبية جارفة بــالرغم مــن صغر سنه . واجتمع مجلس البركتوار الذي كان يدير الحكم فى فرنسا وقرروا مهاجمة انجلترا، ولكن سواحلها الكثيرة، لأنهـا عبارة عن جزر متعددة، كانت عائقاً لتحقيق أي انتصار حاسم .

كما فشل أسطول أسبانيا الأرمادا فى تحقيق أي نصر عليها ؛ وبدلاً من مهاجمته انجلترا وسواحلها، قــررت فرنسا الاستيــلاء

على مصر لقطع خطوط الاتصال مابين انجلترا ومستعمراتها فى الهند ، فيتزعزع مركزها الاقتصادي والبحري ، وتم اختيار نابليون وهو أصغر قائد لقيادة الحملة التي أعدت سراً ، وليحقق مجلس البركتوار هدفاً أكبر وهو إبعاد نابليون عن أضواء باريس التي كانت تسلط عليه .

وبالرغم أن الحملة الفرنسية أبحرت سراً من ميناء طولون بفرنسا قاصدة مصر ، إلا أن الأسطول الانجليزي بقيادة الأدميرال نلسون اشتم رائحتها بالبحر المتوسط ، وظل يبحث عنها خوفاً من تغيير خط سيرها ومهاجمة الجزر البريطانية .

وحين احتلت الحملة مالطا ، تأكدت الأنباء الواردة باتجاه الحملة إلى الإسكندرية فانتهز نيلسون الفرصة واتجه إلى الإسكندرية قبل أن تصلها الحملة وتقابل مع السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية ، وعرض عليه حمايتها من خطر الحملة الفرنسية ، إلا أن السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية رفض تزويد أسطول نيلسون بالمياه الذي قفل راجعاً واتجه بأسطوله ناحية الشرق منتظراً ما سوف يحدث مراقباً تحركات الأسطول الفرنسي .

موقعة أبى قير البحريـــة

وما أن احتلت الحملة الإسكندرية فواصلت تقدمها إلى القاهرة لتحتلها ، حتى أمرت قائد الأسطول الفرنسي بسحبه إلى خلـيج أبو قير . وكانت مدافع الأسطول كلها موجهة ناحية الشاطئ .

واستغل نلسون وجود الأسطول الفرنسي فى المياه الضــحلة التي تصعب فيها المناورة واتجاه المدافع نحو الشاطئ وانقــض بأسطوله عليه حتى أغرقه بمدافعه بالكامل ليتخلص مــن القــوة الفرنسية بالبحر ولم ينجو من هذه المعركة سوى مراكب قليلة ، ودمرت سفينة القائد العام أورينتال. وكان ألم فظيع بالفرنسيين ؛ وسميت الموقعة موقعة أبو قير البحرية .

الأزهــر

منارة العلم والفكر الديني فى مصر والعالم الإسلامي قاطبــة، وقبلة الشرق والغرب لإحياء علوم الدين الإسلامي .. إنه الأزهر الشريف . بناه جوهر الصقلي حين بنى مصر فى عهد الدولـــة الفاطمية ؛ ليكون جامعة للعلوم الإسلامية .

يستقبل طلاب العالم للتفقه فى أمور الدنيا والدين . ومكانته لدى المسلمين غالية وعزيزة باعتباره موئل العلماء الذين ينشرون الدين فى ربوع الدنيا .

ويتكون من أروقة وأعمدة ؛ فالأروقة تنقسم إلى رواق المغاربة ورواق الشام ورواق الترك وغيرهم ، أما الأعمدة فهي تشكل قاعات الدرس ، فلكل شيخ من الأساتذة عمود يتجمع فيه هو وتلاميذه ليقوم بالشرح والتدريس ، سواء فى علوم الدين أو الفقه أو اللغة .

وطلاب الأزهر كانوا يسكنون بجواره فعرفوا باسم المجاورين . وكانت روح المحبة والعلم تجمعهم فى حب المعرفة وفهم الدين الصحيح ؛ فكانوا نسيجاً واحداً على اختلاف مشاربهم وبلدانهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فلا تستطيع أن تفرق بينهم ، لأنهم ينهلون من منهل واحد ، ويتكلمون نفس اللغة ويفكرون بنفس الطريقة .

وعلماء الأزهر كانوا فى طليعة المجاهدين ومجددي الفكر ؛ على مر العصور . حين وطئت الحملة الفرنسية أرض مصر ، كان للأزهر دوراً كبيراً فى التصدي لهذا الاحتلال .

فكانوا يحركون الجماهير ويبثوا فيهم روح المقاومة والإيمان بالنصر على عدوهم ، مما أضج بمضاجع الفرنسيين . وأرادوا اجتثاث روح المقاومة بالتعدي على الأزهر لإخماد الثورات التي كانت تندلع من آن لآخر ؛ من منبره ، وسرعان ما تشتعل في مصر كلها .

فنصبت المدافع من فوق القلعة وصوبت ناحيته تضربه بشده ، تمهد الطريق لدخول الخيالة الفرنسية التي دخلته بخيولهم وأعملوا سيوفهم في طلابه وأساتذته العزل قتلاً وتقتيلاً.وأحالوا ساحته إلى بركة دماء،ومربط للخيول ؛ غير عابئين بقدسيته ومكانته لدى المسلمين ؛ مما كان له الأثر في اشتعال روح الانتقام لمن إجترأوا على إهانته.

وعلى الرغم من أن أحد تلاميذه وهو سليمان الحلبي ؛ لم يكن موجوداً وقت هذه المذابح ؛ إلا أن أخبار الاعتداء عليه ، وأخبار الاحتلال كانت تنتقل إلى الشام مما كانوا يعتصرون ألماً ولوعة على ما أصاب مصر على أيدي الحملة الفرنسية .

سليمان الحلبي يثـــأر للأمـــة

صمم سليمان على الانتقام ؛ وجهز نفسه للرحيل مـــع قافلـــة كانت تغادر الشام إلى القاهرة إلى أن وصلها . فاستقبله شـــيخه الشيخ أحمد وزملائه ، وظل فى استضافتهم جال فيها ببصـــره بآثار التدمير والحرب والقتل ؛ وما أصاب الأزهر من تـــدمير وتدنيس ، فأشعل كل ذلك الحماس والغيرة فى نفسه على دينـــه من هؤلاء المدنسين بحرمات الله ، فعقد عزمه على الانتقام من كبيرهم وهو الجنرال كليبر ؛ الذى تولى أمر الحملة بعد ســـفر نابليون سراً إلى فرنسا .

ونجح سليمان فى جمع التحريات وتعقب كليبـــر وعلـــم بأنـــه يمضي بعضاً من نهاره فى تفقد المنشآت التي كانت تقام بقصر القائد العام بالأزبكية ، فتسلل سليمان فى ملابـــس الشـــحاذين ، واستطاع اجتياز حديقة القصر ؛ وظل مختبئاً وراء أشـــجارها إلى أن تحين اللحظة التي ينفذ فيها مراده .

وشاء حظ كليبر العاثر أن يقبل دعوة المهندس الـــذي يقـــوم بالإنشاءات لتفقد ما قام به من إنجازات بالقصر وخارجه .

فسار في ممشى الحديقة إلى أن ظهر سليمان في مظهر الشحاذ ، واقترب من كليبر ، فأشاح بيده ليبعده من المكان ، فما كان من سليمان إلا أن مسك يده وانهال طعناً بخنجره فى قلبه ؛ ولم يتركه إلا جثة هامدة وسط ذهول المهندس الذي كان يصرخ ويستنجد بالجنود ، فهرب سليمان واختفى خلف الأشجار .

وحين هرع الجنود لمكان الحادث ، أشار لهم المهندس على المكان الذي فر منه سليمان، فظلوا يبحثون قرابة النصف ساعة، ولم يعثروا له على أثر إلى أن لفت انتباه أحدهم غطاء رأس كانت ملقاة بالقرب من أشجار الحديقة؛ فنظروا وراءها فوجدوا سليمان مختبئاً وراءها، فألقوا القبض عليه .

ثم ما لبثوا أن ألقوا القبض على أصدقائه وزملائه وشيخه . وجرت التحقيقات معهم التي أحالتهم إلى المحكمة الفرنسية التي شكلت بأمر القائد العام الجديد مينو ؛ الذي تولى قيادة الحملة بعد كليبر .

وتعتبر هذه المحاكمة ، أول المحاكمات فى مصر تجرى على نسق القانون الفرنسي .

وأثارت دهشة المتفقهين المصريين ومنهم عبد الرحمن الجبرتي ، حين تعجب من توكيل محام من أحد الضباط الفرنسيين للدفاع عن قاتلهم أمام المحكمة التي كانت تجرى باللغة الفرنسية ، ويقوم بالترجمة مترجمو الحملة .

وانتهى الحكم بإدانة سليمان وإعدامه على خازوق ، بعد حرق يده اليمنى وقطعها . وبرّأت بعض زملائه وأدانت البعض الآخر .

وتولى تنفيذ الحكم البرطملي الذي أقعد سليمان على الخازوق وحرق يد سليمان اليمنى وقطعها وتركه على الخازوق إلى أن لقى ربه ؛ وظلت جثته يومين على الخازوق تنهشه جوارح تل العقارب المنفذ بها الحكم فى القاهرة .

ثم ما لبثت أن أخذت جمجمته لتودع متحف الانفاليد العسكري بالقرب من اللوفر بباريس وتظل هناك إلى يومنا هذا. أما روحه فمازالت تحلق ما بين القاهرة وحلب ..

وعاشت إلى الأبد خالدة طاهرة تمس قلوب المصريين والسوريين تذكرهم دائماً بروح الأخوة والفداء والتضحية من أجل الوطن .

وفى حي المنشية بحلب الآن تجد موقف تاكسيات كتب عليها حي سليمان الحلبي ، تخليداً لذكراه .

محمد على وإرادة شعب

وحين فشلت الحملة فى تحقيق أهدافها تحالفت بريطانيا مع تركيا على إخراج الفرنسيين من مصر .

وفى عام ١٨٠٣ تم جلاء الفرنسيين من مصر على المراكب الإنجليزية وأرادت انجلترا أن تثبت دعائمها فى مصر بعد أن سال لعابها عليها بفعل الاكتشافات التي اكتشفها الفرنسيون بمصر ؛ ولموقعها المتميز ، وخططها الاستعمارية .

فتحالفت مع محمد بك الألفي أحد المماليك الأقوياء ، واصطحبته معها إلى انجلترا لعقد تحالف ثنائي معه على أن تساعده فى حكم مصر فى مقابل ولاءه وخضوعه التام لانجلترا، ووافق محمد بك الألفي . وعاد إلى القاهرة يجهز نفسه ليكون حاكماً على مصر بأمر الإنجليز المتحالفين وقتها مع الأتراك .

إلا أن المنية وافت محمد الألفي وهو على أبواب القاهرة قادماً إليها من الصعيد .

فحانت الفرصة لمحمد علي لكون الساحة أمامه خالية تماماً ، وبالرغم من أنه لم يُظهر أي ميل لحكم مصر ، إلا أنه فوجئ بكبار علماء المصريين يلجأون إليه ويحثوه على قبول الولاية ليكون حاكم على مصر بشرط الحكم بالشورى والعدل ، وألا يحكم بهواه ، وأن يعود لهم في المسائل الهامة التي تخص البلاد والمسلمين.

وبعد إلحاح قبل محمد علي الولاية وجلس على أريكة مصر ، بعد أن خلع زعماء الشعب خورشيد باشا الحاكم العثماني الذي هاجموه واضطروه للنزول من القلعة حتى نزل خوفاً على حياته .

وفى سنة ١٨٠٥ تم تعيين محمد على بإرادة الشعب المصري في أول مرة تظهر فيها الإرادة الشعبية .

وتحت إصرار هذه الإرادة لم يجد السلطان العثماني بداً من إصدار فرمان بتولية محمد على حكم مصر الذي ما أن استقر فى الحكم حتى تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة ؛ وسرعان ما نفى عمر مكرم والشيخ الشرقاوي ، حتى انفرد بالحكم ومال إلى الفرنسيين فى تحديث مصر .

حرض الإنجليز الأتراك على خلع محمد على من الولاية ؛ ولكن رفض محمد على تنفيذ أوامر السلطان العثماني .

بسالة أهـل رشيد

فجهزت بريطانيا سنة ١٨٠٧ حملة بقيـادة فريـزر لتحتـل الإسكندرية ، ثم تتقدم إلى رشيد، قاصدة خلع محمد على بالقوة. فتظاهر أهل رشيد بإخلاء المدينة التى دخلتها القوات الإنجليزية بلا قتال حتى تركب مراكبها وتتجه منها من فرع رشيد بالنيـل إلى القاهرة لتحتلها .

ولكن أهل رشيد ما أن استرخى الإنجليز حتى قاموا بهجـوم عليهم وفتكوا بمعظم أفرادها . ولم يجد قائد الإنجليز فريزر بداً من التسليم ورفع الرايات البيضاء .

وتم عقد صلح ما بين المصريين والإنجليز انتهى إلى رحيل القوات الإنجليزية التي رحلت عن الإسكندرية فى مقابل الإفراج عن أسراهم ، وهى تحنق على محمد على التي ساعدته الأقـدار ورياح الشرق التي أضاعت أحلام الإنجليز .

فعادت أدراجها تنتظر هبوب الرياح من جديد لتفرد أشرعتها لتعود ، تحقق أحلامها باحتلال مصر .

معاهدة لنـــدن ١٨٤٠

وبدأت هذه الرياح تأتي من جديد حين اندهشت أوربا من القوة المصرية الفتية التي أصبح لها جيش حديث وأسـطول بحـري كبير في البحر يضاهى أساطيل الدول القوية ، وأصبحت بهـذه القوة تهدد أطماع الدول الأوربية فى الشرق وفى أفريقيا .

فاجتمعت الدول الأوربية وتم عقد معاهدة لنـدن سـنة ١٨٤٠ التي قصد منها تحجيم قوة مصر ومنعها من الامتداد الإقليمـي وإجبارها على الانسحاب من الشام [سوريا ولبنان وفلسطين] في مقابل جعل حكم محمد علي على مصر وراثياً . ولم يقبـل محمد على هذه الشروط إلا مرغمـاً ومضـطراً ؛ وانسـحبت الجيوش المصرية إلى القاهرة .

قطـار الشرق السريع

وظل الطريق البري بين مصر والشام قائماً ومسـتمراً منـذ الفراعنة تتنقل القوافل عبره . وهو الطريق الذي يعتبـر أقـدم الطرق البرية عبر التاريخ حتى قبل هجرة قوم موسى من مدين إلى مصر . واهتمت به السلطنة المملوكية وعملت على تعبيده وحراسته .

وإنشاء القلاع والاستراحات ، وعيون الآبار ، ومنها قلعة نخل بسيناء وغيرها لجعله صالح للسفر . واستمر هذا الطريق تتنقل عبره القوافل من الشام للقاهرة والعكس، إلى أن احتلت بريطانيا مصر وأعلنت الحماية عليها .

وظلت سيناء تحت القبضة الإنجليزية حيث كانت جمارك القاهرة بالإسماعيلية التي تختم فيها الجوازات ويصرح بالمرور فى سيناء إلى العريش ثم رفح إلى خان يونس إلى غزه إلى القدس ؛ ومنها يتفرع الطريق إلى عمان بالأردن أو دمشق بسوريا أو صور بلبنان على شريط البحر المتوسط إلى بيروت، وكلا الطريقين سواء دمشق أو بيروت كان يفضي إلى حلب .

وبإنشاء السكك الحديدية بمصر ، كان بإمكان المسافرين أن يقطعوا تذكرة سفر من القاهرة إلى لندن بمحطة مصر أو إلى باريس أو إلى برلين ، ويسير بهم القطار من القاهرة إلى الإسماعيلية إلى العريش ثم القدس ليتم تغيير القطار ويأخذوا قطار القدس ــ دمشق ــ حلب ــ استانبول بتركيا . ثم يتم تغيير القطار إلى الجهة المقصودة من أوربا . وكان يسمى القطار وقتئذ : قطار الشرق السريع .

وفى يوميات الأهرام يعرض الدكتور يونان لبيب رزق رحلة موظف مصري استطاع أن يوفر جزءاً من راتبه ليقوم برحلة إلى الشام ، ومن مذكراته يصف هذه الرحلة بالآتي :

" انطلق بنا القطار من القاهرة إلى الإسماعيلية التي توقفنا فيها حيث أن القطارات لا تنطلق من الإسماعيلية عبر سيناء إلا ليلاً الساعة ١٢ حين يتلطف الجو وتهدأ الرياح فلا تثير الرمال على القضبان ، ويخلد أغلب الركاب للنوم ، وبعضهم يتأمل منظر النجوم فى كبد السماء .

وكانت رحلة شائقة ومغامرة مثيرة إلى أن يتوقف القطار في القدس بفلسطين الساعة ٤ عصراً، فيتم تغيير القطار ونأخذ القطار الذاهب إلى دمشق ثم حلب . وكانت هذه الرحلة تزيد وشائج المحبة بين مصر والشام .

حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية وخافت بريطانيا من استغلال الألمان لخطوط السكك الحديدية فى نقل عتادها وقواتها العسكرية ، فقامت بنسفها ونسف الخط المتجه إلى الحجاز حتى توقف هذا الخط تماماً وانتهى بقيام حرب ١٩٤٨ .

حيث ظل يعمل إلى غزه فقط ثم ألغي تماماً عقب حرب١٩٦٧ حين احتلت إسرائيل غزه وسيناء وانقطعت الطرق البرية والحديدية تماماً لتفصل الشرق العربي عن بعضه .

وظل متوقفاً حتى الآن ، وإن كان أمل الحكومة المصرية لم يتوقف بعد معاهدة السلام ، وإنشاء كوبري السلام ، وإعادة الخط الحديدي إلى العريش .

تقسيم سايكس بيكو

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، ١٩١٩ قامت انجلترا وفرنسا بعقد معاهدة سايكس بيكو بتقسيم الدولة العثمانية التى كانت تقف مع دول المحور: ألمانيا وايطاليا واليابان ، وأصبحت كالرجل المريض لا تقوى على حكم الدول التابعة لها.

وتم استيلاء فرنسا على سوريا ولبنان ، واستولت انجلترا على العراق ومصر وشرق الأردن . وأعقبها توقيع اتفاقية القاهرة السرية ، وبمقتضاها استولت روسيا على أضنه التركية وشمال كردستان والمضايق التركية لتنفذ عبر البحر الأسود إلى البحر

المتوسط ، بينما حصلت انجلترا على تسهيلات كثيرة لا حـدود لها بميناء الإسكندرونة على البحر المتوسط ، الـذي اقتطعته فرنسا من سوريا .

ثم أعقب ذلك اتصالات الشريف حسـين حـاكم الحجـاز بانجلترا ، وعرفت باسم مراسلات الحسين [حسين مكماهون] والذي يخلص إلى وقوف العرب مع بريطانيا لتساعدهم علـى التحرر من الولاية العثمانية . ثم ما لـبث أن بسـطت نفوذهـا وحمايتها على العرب وأعادت ترسيم الحدود وفق أهواءها .

وما لبث العرب يخرجون من الحظيرة العثمانية ، حتى وقعوا فى براثن الاستعمار الذي عمل جاهداً على خنق كـل أشـكال حركات التحرر ودعم الفكرة والحلم الصهيوني في إنشاء دولة لهم في فلسطين .

إسرائيل الحلم الغربي

وجاءت إسرائيل لتقر عيون أوربا . لأنها وجـدتها الوسـيلة المُثْلَى فى فصل الشمال الشرقي العربي عن شرقه الغربـي ، ووقفـت بجانـب إسرائيل بكل ما تملك ، تُقَوِّي جانبها ، سواء

بالمال أو الرجال أو السلاح لتعوض التفوق العـددي العربـي بالتفوق التكنولوجي لإسرائيل ؛ حتى صار لها قوة ضاربة تهدد به الأمن القومي العربي .

واليهود كانوا يعيشون فى فلسطين منعمين بحريتهم وممارسة شعائرهم شأنهم شأن المسلمين والمسيحين المتكون منهم جميعـاً شعب فلسطين وكان عددهم يقدر بـ ٥% فقط من مجموع سكان فلسطين .

وكانوا يسكنون ضاحية تل أبيب فى مدينة حيفا العربيـة ، إلا أنهم بدأوا يتوسعوا بشراء الأراضي على حساب السكان العرب ويلتهموا الأحياء العربية .

وزاد خطرهم منذ دعوة هرتزل بإنشاء دولة إسرائيل في تلك المناطق .

وفتحت أوربا أبوابها على مصراعيها لتهجير يهود أوربا إلى فلسطين فى ظل صمت عربـي ! وأمـدتهم بالمـال والسـلاح والرجال والتدريب؛ حتى صـار لهـم جـيش عـرف باسـم: الهجانــة، كانت مهمته اقتحام الأحياء العربية وتسكين اليهود فيها .

وإزاء طرد وتدمير الفلسطينيين ، وإنشاء المستوطنات ، وارتكاب المذابح البشعة ، والتي تشيب لها رؤوس الولدان في دير ياسين وغيرها ..

حين أدرك ساسة العرب خطورة الدولة الوليدة ، اجتمع مجلس الجامعة العربية في عام ١٩٤٨ .. وأعلن الحرب على إسرائيل، فتحركت الجيوش العربية تحاصرها من كل جانب حتى صار الجيش المصري على مقربة من تل أبيب وهي الضاحية اليهودية في حيفا العربية التي اتخذتها إسرائيل عاصمة لها حتى اجتمع عصبة الأمم تقرر إعلان الهدنة حين شعر الساسة الغربيون بالخطورة على دولتهم الوليدة وليعيدوا الخطط الحربية.

وللأسف ، قَبِلَ الساسةُ العرب هذه الهدنة ، فاستطاعت الدول الغربية مساعدة إسرائيل بالمرتزقة ، والمال ، والسلاح ، وإحداث الفتنة داخل الصفوف العربية .

وخرقت إسرائيل هذه الهدنة وهجمت على الجيوش العربية التي ركنت إلى الراحة وعدم الاستعداد ؛ فكانت هزيمة نكراء للعرب، وفرح غامر لإسرائيل ولحلفائها الغربيين .

العـــدوان الثلاثي .. ونـهاية الاستعمار التقليدي

وحين أممت مصر قناة السويس عام ١٩٥٦ ، وجدت الـــدول الغربية ممثلة في بريطانيا وفرنسا بالاشتراك مـــع إســـرائيل ، المبرر الكافي لمهاجمة مصر ، لتتضح حقيقة إســـرائيل بأنهـــا الحامية لمصالح الدول الغربيـــة بمنطقـــة الشـــرق الأوســـط .. وتمكنت الجيوش المهاجمة من إصابة مـــدن القنـــاة ، إلـــى أن وجهت كلاً من أمريكا وروسيا إنذاراً شديد اللهجـــة إلـــى تلـــك الجيوش بالانسحاب .

وكانت كلاً من أمريكا وروسيا تريد مـــلء الفـــراغ الغربـــي بالشرق الأوسط بعد أن تمّ إجـــلاء الجيوش البريطانية والفرنسية عن مصر وسوريا ولبنان عقب سقوط حقبة الاستعمار التقليدي .

وظهرت على الساحة الهيمنة الأمريكية والروسية في ظل مـــا يعرف بالحرب الباردة بين القطبين الكبيرين ؛ الـــذين حـــاولوا استقطاب أكبر عدد من الدول تدور في فلكها .

وبالرغم من أن أمريكا وروسيا هما أول الدول التـــي اعترفـــت بإسرائيـــل وبوجودهـــا كدولة إلا أن كـــلاً منهما كانت تدير دفة

أمورها بحسب مصالحها الذاتية لتحقيق أكبر قدر من المكاسب بغض النظر عن مصالح الدول الأخرى .

نضال الشعب السوري ضد العدوان الثلاثي على مصر

وحين هجمت الجيوش الفرنسية والإنجليزية والإسرائيلية على مصر ، قام الأحرار فى سوريا بتفجير خطوط أنابيب البترول فى ميناء بانياس السوري ، وهى التي تحمل بترول العراق عبر الأراضي السورية حتى البحر المتوسط لتصب فى الناقلات العملاقة إلى أوربا .. بلاد المعتدين فكان لابد من منع وصول هذا الشريان الحيوي إليهم لتعطيل آلياتهم ومركباتهم العسكرية سواء كانت جوية أو بحرية أو برية .

وكان مشهداً مهيباً حين دقت أجراس الكنائس فى أنحاء سوريا ومصر والوطن العربي بأكمله فى وقت واحد أثناء تشييع الجثمان الطاهر للشهيد البحري الضابط السوري جول جمال الذي شارك فى المعركة البحرية التي تمت فى مواجهة بحيرة البرلس بمصر لصد هجوم البارجة الفرنسية " جان بار" والتي كانت تتأهب لإنزال جنودها بقناة السويس .

فركب جول جمال ، وجلال الدسوقي ، وجواد حسنى .. زورقين للطوربيد واقتحما بهما البحر ليصطدما بالبارجة الفرنسية ليحدثا فيها انفجاراً هائلاً أدى إلى غرقها بالكامل فى أعماق البحر. كانت عملية بحرية أذهلت العالم ، وتعانقت أصوات المؤذنين مع أجراس الكنائس فى مشهد معبر عن الوحدة القومية العربية الذي يجيش بصدور العرب ، مما كان له الأثر فى ترجمة هذا الشعور إلى واقع عملي بالوحدة مابين البلدين .

الجمهورية العربية المتحدة .. صمود وتحدي

وحين أدركت مصر نجاح المخطط الغربي في فصل الشمال الشرقي عن الجنوب الغربي جغرافياً ؛ فسارعت مصر وسوريا لإعلان الوحدة عام ١٩٥٨ ليصير اسمها واحداً هو : الجمهورية العربية المتحدة ؛ بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر .

فكان ذلك بمثابة الصفعة القوية التي تعلنها مصر وسوريا في وجه الاستعمار التقليدي وأصبحت سوريا الإقليم الشمالي ومصر الإقليم الجنوبي ؛ والرئيس السوري شكري القوتلي نائباً للزعيم جمال عبد الناصر.

وعادت الروح العربية بين الشعبين ؛ ترفرف من جديد وتذكرها بانتصاراتها المجيدة حين اتحدت الدولتين ، سواء أمام التتار في عين جالوت أو أمام الصليبيين في حطين في عهد صلاح الدين الأيوبي، أو في عهد محمد علي وابنه إبراهيم باشا. وحين وصل الرئيس جمال إلى الأرض السورية ، زحفت الجماهير السورية تتدافع وتشرأب أعناقها لترى الفتى الأسمر ذو البسمة التي تضوي على ثغره ، وهو يقف ملوحاً لها بيده من سيارته المكشوفة التي تشق طريقها بصعوبة بالغة وسط الزحف البشري المتلهف لرؤية الزعيم وجهاً لوجه ، الذي نادى بالوحدة العربية وأيقظ الشعور الوطني الكامن داخل الوجدان العربي من المحيط إلى الخليج ، ويروا البطل الذي واجه أعتى الإمبراطوريات الاستعمارية في حرب ١٩٥٦، فما كان من هذه الجماهير إلا أن حملت السيارة وسارت بها في لحظة ، احتفاء صادقة ، معبرة عن حب كامن في أعماقها ، لم يظهر عبر التاريخ لأي زعيم سوى لـ جمال عبد الناصر رحمه الله .

وظل الغرب يتربص بهذه الوحدة ويثير الفتنة والوقيعة ويحرك العناصر المناوئة والضعيفة لهذه الوحدة حتى صار انقلاب عام

١٩٦١ لتفصل الدولتين عن هذه الوحدة وتعود كل منها إلى اسمها، ولكن الروح العربية التي يتحلى بها الشعبين كانت مازالت تحلق عبر الجغرافيا وتهدم حقائق هــذا الانفصـــال وتــذيب الحــدود المصطنعة بين مصر وسوريا .

وحلت الطرق البحرية والجوية محل الطريق البري الذي قطع فى العريش ورفح . وصارت البواخر العربية لشركة الملاحــة المصرية مثل البواخر [الجزائر وسوريا ، ومصر والســودان] تمخر عباب البحر المتوسط من الإسكندرية إلى اللاذقية وبيروت لتجعل شرق المتوسط بحيرة عربية والشريان الممتد المتدفق لكلا الشعبين .

وكانت أسعار تذاكر الركاب زهيدة جداً ، وكأن الفرد ينتقل من مدينة إلى أخرى داخل الدولة الواحدة . وكذلك كانــت خطــوط الطيران المنتظمة للشركة المصرية والسورية للطيــران التــي سميت الشركة العربية للطيران .

ونتيجة لهذه الوحدة الشعبية غير الرســمية ، عــادت القــوى الصهيونية المدعومة بالغرب فــى اختبــار آخــر عــام١٩٦٧ كمحاولة للوقيعة بين مصر وسوريا .

وذلك بادعاء حشد الجيش الإسرائيلي على الحدود السورية لجس النبض المصري وكان أملهم فى سكوت الجانب المصري عن تلك التحرشات للإنفراد بعد ذلك بسوريا .

إلا أن مصر كعادتها انتفضت وأعلنت أن أي اعتداء على سوريا يمثل اعتداء على مصر ، وأغلقت خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية . فجاء رد مصر السريع مخيباً لآمال الصهاينة والقوى الغربية التي تدعمها .

إسرائيل تجثم على أنفاس الأمة ٦ سنوات

وكانت كل المؤشرات ترجح بقيام إسرائيل لعمل عدواني على مصر إلا أن روسيا كانت تحث مصر على منعها من الهجوم أولاً على إسرائيل لأنها فى حالة تلقيها الضربة الأولى تستطيع مصر أن تمتصها ثم تهجم على إسرائيل ومن ثم تكون ليست هي البادئة فى العدوان أمام الرأي العالمي .

وبديهي أن روسيا حاولت أن تستثمر الموقف لصالحها ولمصالحها فى الشرق الأوسط وعلاقاتها مع إسرائيل لا سيما وأن هذه الأخيرة كانت تركز بناء المستوطنات المليئة بالمستوطنين الروس على الحدود المصرية السورية لمنع الدولتين من الهجوم عليهم لارتباطهم بالروس .

وفى صبيحة ٥يونيو ١٩٦٧ .. انكسار مفاجئ ، وكبرياء يقلوم

وفى هجوم مباغت شن الطيران الإسرائيلي هجوماً على معظم المطارات الحربية المصرية ، وبالمثل فى سوريا لتدمر الطيران المصري والسوري وهم على أرض المطارات بـدون معـارك حربية ، وتهجم على سيناء والجولان السورية وتسـتولي علـى القدس وغزه والضفة الغربية من الأردن .

وتظل جاثمة على هذه الأراضي ما يزيد على سـت سـنوات. امتلأت هذه الفترة بما يعرف بحرب الاستنزاف وتكبـدت فيهـا إسرائيل خسائر كبيرة نتيجة هجوم مباغت خلف خطوط العـدو وتدمير وسائل دفاعه وإحداث خسائر فى أفراده ومعداته .

وكانت ترد إسرائيل بشراسة بضرب المدن والأهداف المدنيـة كمدرسة بحر البقر الواقعة على بحيـرة المنزلـة . واسـتطاع طيرانها من ضرب أهداف مدنية فى عمق مصر بالصعيد .

سنة ١٩٧٣ عـودة أرض .. واستعادة كرامـة

ومن ثم ناضل الزعيم جمال عبد الناصر فـى إنشـاء شـبكة صواريخ سميت بحائط الصواريخ لحماية الدلتا وعمق مصر من انتهاك الطيران الإسرائيلي للأجواء المصرية .

وقامت بتنفيذه مصر بتعاونها مع الاتحاد السوفيتي بموجب معاهدة التعاون المشترك ، كما قامت القوات المسلحة المصرية بإعادة هيبتها واقتحام الموانع المائية المجسمة .

وفى ظل هذه الظروف لم تكن روسيا تسعف القيادة المصرية بمطالبها المستمرة إلا بعد إلحاح وإلحاح فكان على القيادة المصرية إدراك أن تحرير الأرض لن يتم إلا بالعقول المصرية وبسواعدهم .

وفى ظل حرب الاستنزاف الذي كبد إسرائيل خسائر فادحة سواء فى معركة شدوان أو فى تدمير سفن وأرصفة بميناء إيلات أو تدمير المدمرة إيلات التي كانت تتأهب لقصف مدينة بورسعيد فاتجه إليها زورقين للبحرية المصرية أمطروها بصواريخهما فى كبدها وعمقها فغرقت قبالة شاطئ بورسعيد ، فسارعت القوى الغربية على رأسهم أمريكا التي حلت محل بريطانيا فى تسيير شئون إسرائيل بعرض المبادرات الداعية للسلام والانسحاب من سيناء كمبادرة روجرز .

إلا أنها كانت مضيعة للوقت وتهدئة للطرفين . وبالرغم من استعداد مصر من قبول هذه المبادرات إلا أن إسرائيل كانت ترفض ويبدو أنه لم يعد هناك خيار سوى تحقيق مبدأ الرئيس جمال عبد الناصر : ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .

وكان يتعين على القوات المسلحة أن تعيد كرامة المقاتل المصري والعربي. والتقت القيادتين المصرية والسورية وبحثت

كيفية رد العدوان وتحرير الأرض . فأصدر كل من الرئيسين محمد أنور السادات وحافظ الأسد قرار الحرب .

وفى رحلة من رحلات الباخرة الجزائر ما بين اللاذقية والإسكندرية تَخَفّى قادة أركان الحرب السورية فى ذي مدني ليتقابلوا سراً مع إخوانهم أركان حرب مصر بالقاهرة وليحددوا موعد وتوقيت التنفيذ بما يتفق مع مصلحة الجيش المصري والسوري فيتم تحديد يوم ٦ أكتوبر الساعة الثانية وعشر ظهراً ليبدأ الهجوم المصري السوري على الجبهتين فى توقيت واحد .

وبالفعل انطلقت المقاتلات المصرية السورية كل من جبهتها تقصف بعنف موقع العدو وتشل حركته وتربك قيادته وتحقق ٩٩% من مهامها بنجاح وتعود إلى مواقعها سالمة لتبدأ المدفعية تضرب بقوة ونيران كثيفة وتحت سيطرة النيران تعبر القوات المصرية قناة السويس وتقتحم خط بارليف

وتقتحم القوات السورية مرتفعات جبل الشيخ فى تنسيق متناغم رائع أذهل خبراء العسكرية العالمية وأفقد إسرائيل صوابها .

وبدأت تصرخ رئيسة وزرائهم جولد مائير أنقذوا إسرائيل .
ويبدو أن العرب أوجعوها وردوا الصاع صاعين .

وأعادت القوات المصرية تحرير شـرق القنـاة ، والقـوات السورية مرتفعات جبل الشيخ . وشهدت الأيام التالية معـارك شرسة عنيفة بالدبابات والمدرعات فاقت حروب الحرب العالمية الثانية. ولم يشهد مثلها مثيل ووقع فى الأسر كثير من الضـباط والجنود الإسرائيليين وتحطمت الأسطورة الإسرائيلية والجـيش الذي لا يقهر . وفى ذات الوقت الذي قطع الملك فيصل والشيخ زايد بترول السعودية والإمارات عن حلفـاء إسـرائيل ومـن يساعدوها . ونجح سلاح البترول فى تحقيق المطالب العربية ؛ وكانت وسيلة ضغط ناجحة .

أمريكا تخلع قنـاع الزيف

إلى أن فوجئت القيادة المصرية بجسر جوي يأتي رأساً مـن أمريكا بالدبابات والمعدات العسكرية وأصبحت المواجهة بـين القوات المصرية والأمريكية التي كانت تتأهب وشيكة . فبدأت القيادة المصرية تعيد حساباتها وتحـتفظ بـالأرض التـي تـم تحريرها وتمسكت بموقفها. وحين تم وقف القتال على الجبهـة المصرية وكانت المعارك تزداد شراسة على الجبهة السورية . فبدأت القوات الإسرائيلية تعيد احتلال مرتفعات جبل الشيخ بينما

حررت القوات السورية مدينة القنيطرة وتمسكت بها فى الوقت الذي أتى فيه الجيش العراقي بلواء يعضد موقف القوات السورية ويعاونها فى عملياتها إلى أن تتوقف الحرب ، ويحتفظ كل طرف بما وصل إليه جنوده . إلى أن أعلن الرئيس أنور السادات بصراحة وبوضوح بمجلس الشعب المصري أنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا التي هددت بضرب المرافق الحيوية المصرية ــ وكان موقف شجاع ــ يتطلب حنكة سياسية .

ويعلن في ذات الموقف بأنه مستعد لأن يذهب لآخر العالم وهو منتصر من أجل حقن الدماء وحل مشكلة الشرق الأوسط ويجنبها ويلات الحروب والدمار . وهو نفسه الموقف الذي أعلنه بالكنيست الإسرائيلي .. حين قرر لهم أنه جاء إليهم منتصراً يحمل راية السلام المبني على تحرير كامل الأرض العربية وحل مشكلة فلسطين وهى لب الصراع العربي الإسرائيلي . وحذر أنه بدون حلها فلن تحل المشكلة .

واشترط وجود أمريكا كشريك كامل لأنه أدرك أن المواجهة لم تعد بين إسرائيل والعرب فقط ؛ بل بين أمريكا ، بما تمثله من قوة غربية والعرب .

معاهـــدة الســـلام

وبدأت معركة أخرى هي معركة السلام، وكانت أشرس من معركة الحرب انتهت بتوقيع معاهدة كامب ديفيد بـــين مصـــر وإسرائيل بحضور أمريكا فهي جولة أخرى خاضتها مصر من أجل تحرير كامل التراب المصري ونجحت فعلاً فـــى اســـترداد سيناء بالكامل وطابا بعد معركة أخرى قضائية؛ حتى قام الرئيس حسني مبارك يرفع العلم المصري خفاقاً على طابا وسيناء بالكامل.

فـــاروق الشرع يفضح الإرهابي

أما سوريا فرفضت الجلوس مع إسرائيل إلا برعاية دوليـــة ، وانعقد مؤتمر مدريد بأسبانيا ليضم الوفود الأوربية والأمريكيـــة والعربية والإسرائيلية وكان يتزعم حكومة إسرائيل فـــى ذلـــك الوقت إسحاق شامير الذي اتهم سوريا برعاية الإرهاب .

وحين أعطيت الكلمة لسوريا وقف وزير خارجيتها السيد/ فاروق الشرع يرد على الوقاحة الإسرائيلية ثم سرعان ما أظهـــر صـــورة منشورة لإسحاق شامير بإحدى الجرائد الإنجليزية مكتـــوب عليهـــا مطلوب القبض عليه لأنه إرهابي . ليفحم هذا الرد أعضـــاء الوفـــد الإسرائيلي فيذوبون فى كراسيهم خجلاً .

وينتهي المؤتمر بقرارات أهمها : لا صلح مع إسرائيل إلا بانسحابها الكامل من مرتفعات الجولان السورية والأراضي العربية والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني والاعتراف بإنشاء دولة يهودية ودولة فلسطينية وتنفيذ قراري مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨ .

وظهرت فكرة الأرض مقابل السلام كأساس استراتيجي للسياسة السورية لحل مشكلة الشرق الوسط بينما تمسكت إسرائيل بأمن إسرائيل أولاً قبل تنفيذ قرارات المؤتمر .

وسرعان ما أهدرت تلك المقررات بحجة الأمن التي أقنعت الدول الغربية بها .

ووقفت خلفها تدعمها فى هذا المطلب العجيب لأنه مطلب فضفاض لا تعرف له حدود أي متى يكون الأمن تحقق أو لم يتحقق فيكون تحت يدها المنفردة ، فهي تستطيع فى كل مرة أن تزعم أن أمنها لم يتحقق وهكذا .

ولاختلاف وجهات النظر المصرية والسورية حول نهج السلام كان له تأثير فى قطع العلاقات المصرية السورية استمر طيلة ما تبقى من حكم الرئيس السادات .

مصر تعود لحضن العرب

وبذل الرئيس حسنى مبارك جهداً فى لم الشمل العربي وإعادة العلاقات العربية المصرية وعادت روح الشعبين المصري والسوري ترفرف من جديد حين خرج الرئيس مبارك مصافحاً للرئيس حافظ الأسد أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي بالكويت ليعود التنسيق العربي من جديد ، وتنقشع سحابة الصيف التي مرت على الدول العربية بسلام لتعود العلاقات أدفأ كدأبها دائما حين تعود بين الأشقاء .

وظلت معركة السلام مستمرة إلى أن تكللت بجهود مصر وأمريكا وموافقة إسرائيل على إعطاء الفلسطينيين الحكم الذاتي فى غزه والضفة الغربية .

واصطحب الرئيس حسنى مبارك الرئيس ياسر عرفات على الحدود المصرية ليعبر بوابة رفح ويدخل إلى غزه مع مقاتليه أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ليستقبلهم الشعب الفلسطيني أروع استقبال . ويصبح مقر الرياسة فى مدينة أريحا .

إسرائيل وسياسات القمع

وتلكأت إسرائيل فى تنفيذ اتفاق أوسلو بالانسحاب من المدن الفلسطينية المحتلة طبقاً للإتفاق فى عام ١٩٩٧، وبذلت المساعي الدبلوماسية المصرية الأمريكية فى التوفيق بين الطرفين للوصول إلى حل يرضي جميع الأطراف . إلا أن إسرائيل ظلت تماطل وتحنث عهودها واتفاقياتها حتى اندلعت الانتفاضة الأولى التي بدأها أطفال الحجارة التي كانت تواجه الدبابات الإسرائيلية والمدرعات .

استخدمت إسرائيل أبشع الوسائل لتدمير شعب كامل وتمنعه من استعمال حقه فى تقرير المصير وهى أبسط قواعد العدالة فى القانون الدولي . وأعطت أمريكا الضوء الأخضر لإبادة الإرادة الفلسطينية ومعاملتهم معاملة الهنود الحمر ، أصحاب الأرض الأصليين ليعيشوا فى مناطق منعزلة أو يقبلوا بالأمر الواقع المفروض عليهم .

وهو الأمر الذي رفضه الشعب الفلسطيني الذي آثر الفوز بإحدى الحسنيين فى ظل سياسات القمع وتدمير المنازل وقتل الأطفال . وهو الأمر الذي يتنافى مع أبسط قواعد العدالة .

الجامعة العربيـــة

فانعقدت القمة العربية بالقاهرة وبيروت تمد يـــدها بالســلام ، وترفضها إسرائيل ، فى ظل تجاهل عــالمي لمأســاة الشــعب الفلسطيني .

ولم يفتر اهتمام مصر وسوريا بالقضية الفلسطينية التي ستظل محور اهتمامهما واستراتيجية ثابتة ، ويتعاونا فيها مع أشــقائهم العرب فى سبيل حلها وحل جميع المشكلات من جــراء عــدم الانسحاب من الأراضي المحتلة ويحلمان بعودة الطريق البــري الشمالي ما بين القاهرة ودمشق وبيروت .

عــودة

كنت أتابع هذه الأخبار وأنا أتصفح فى صحيفة الثورة وتشرين السورية والأهرام المصرية وأنا فى طريق عودتي إلى القاهرة والطائرة تعود إلى البحر المتوسط سرعان ما هبطت فى مطار القاهرة بعد رحلة شائقة عشت فيها الانتصارات العربية والآمال والتطلعات بأفراحها وأحزانها لأمة ذات حضارة مؤمنة وصابرة أردت من خلالها إنعاش ذاكرتها .

المراجع

١ عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد على

٢ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار والتراجم

٣ الشيخ زنبل [أحد المرافقين للحملة] : تاريخ وقعة السلطان الغوري والسلطان سليم

٤ كامل البالي الشهير بالعرسي : نهر الذهب فى تاريخ حلب

٥ د.شوقي شعث : تاريخ قلعة حلب ـ دليل أثرى

٦ المستشار السعيد العشماوي : الحملة الفرنسية على مصر

٧ د. عبد العظيم رمضان : حرب أكتوبر

٨ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور" حوادث الفتح العثماني جـ٣، ٤، ٥

٩ د. محاسن الوفاء : الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية ١٥١٧

١٠ د. عادل عبد الحافظ حمزه: نيابة حلب فى العصر المملوكي، رسالة دكتوراة

تنويه

أسجل شكر خاص لموظفي المكتبة العامة بالمنصورة ، ولموظفي المكتبة العامة بحلب .. من أجل التسهيلات التي قدموها لإنجـــاز هذا الكتاب .

كما أشكر السيد/ جمـــال رحمــــه .. من أبناء بلدة مرج دابـــق محافظة حلب، عرفاناً بحسن مقابلته وإرشاده عن مكان المعركـــة .

المحتويات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢١٢٤٧ / ٢٠٠٥ في ٢٠٠٥/١١/٢٣



وبدأت معركة أخى هى معركة السلام ، وكانت أشرس من معركة الحرب أنتهت بتوقيع معاهدة كامب ديفيد بين مصر وأسرائيل بحضور أمريكا فهي جولة أخرى خاضتها مصر من أجل تحرير كامل التراب المصري ونجحت فعلاً في إسترداد سيناء بالكامل وطابا بعد معركة أخرى قضائية حتى قام الرئيس حسني مبارك برفع العلم المصري خفاقا على طابا وسيناء بالكامل ..
أما سوريا فرفضت الجلوس مع إسرائيل إلا برعاية دولية، وأنعقد مؤتمر مدريد بأسبانيا ليضم الوفود الأوربية والأمريكية والعربية والإسرائيلية ، وكان يتزعم حكومة إسرائيل في ذلك الوقت إسحاق شامير الذي اتهم سوريا برعاية الإرهاب وحين أعطيت الكلمة لسوريا وقف وزير خارجيتها السيد / فاروق الشرع يرد على الوقاحه الإسرائيلية ثم سرعان ماأظهر صوره منشوره لإسحاق شامير بإحدى الجرائد الإنجليزية مكتوب عليها مطلوب القبض عليه لأنه أرهابي .
ليفحم هذا الرد أعضاء الوفد الإسرائيلي فيذوبون في كراسيهم خجلاً .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥/٢١٢٤٧ في ٢٠٠٥/١١/٢٣